# الإمام المصلح عبد الحميد بن باديس: حياته وجهوده التربوية

## Reformis Imām ‘Abd al-Ḥamīd ibn Bādīs: Kehidupan Beliau dan Reformasi Pendidikan

## Reformer Imām ‘Abd al-Ḥamīd ibn Bādīs: His Life and Educational Reforms

باي زكوب عبد العالي*، وسوهيرين محمد صوليحين**

**الملخّص**

يعدّ عبد الحميد بن باديس أحد العلماء الجزائريين المبرزين بالإصلاح الاجتماعي والدّيني والسّياسي والتربوي، عاش خمسين سنة في القرن العشرين الميلادي، حيث كانت ولادته سنة 1889م، وكانت وفاته سنة 1940م، ولقد فرض الواقع الجزائري إبّان فترة الاحتلال الفرنسي الذي كان يسعى إلى طمس ثوابت الأمّة الجزائرية، وخرق تاريخها، وهُويّتها، وثقافتها، ووحدتها الدينيّة، واللّغوية على ابن باديس أن يسلك نهج التربية والتعليم، قاصداً بذلك مواجهة الاحتلال الفرنسي الغاشم من خلال عدّة جبهات ومجالات كمثل مجال الصحافة، ومجال التربية والتعليم، ومجال الجمعيات، ومجال السياسة وغير ذلك، يهدف هذا البحث إلى إبراز دور عبد الحميد بن باديس في النّهوض بالأمّة الجزائريّة نحو تربيّة أفضل، وحياة أسعد، فيبدأ أوّلاً وبشكل موجز، بالتعرّف على الفترة الصعبة التي عايشها ابن باديس والمتمثلة في فترة الاحتلال الفرنسي الغاشم، وآثاره السلبية على الصعيد السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والديني الجزائري

---

* حصل على شهادة دكتوراه من قسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.

** الأستاذ المشارك بقسم دراسات القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.

وقتذاك، ثم يقوم ثانياً بتسليط الضّوء على حياة ابن باديس وتكوينه العلمي ورحلاته الداخلية وأسفاره الخارجية؛ ثم يسعى ثالثاً وبتعمّق، التعرّف على أعمال ابن باديس الاجتماعيّة وجهوده التربويّة التي أخذت حظّاً وافراً من حياته اليومية، والتي تركّزت على منبرين رئيسين، هما: منبر الصّحافة، ومنبر التربيّة والتعليم.

**الكلمات المفتاحيّة:** الإمام عبد الحميد بن باديس، الاحتلال الفرنسي، التربية، الجزائر، الإصلاح.

**Abstract**

Imām ‘Abd al-Ḥamīd ibn Bādīs is an Algerian scientist, and eminent social, religious, political and educational reformer. He lived fifty years in the twentieth century. He was born in 1889 and died in 1940, and lived during the French occupation that attempted to distort and undermine the foundations of the Algerian nation by destroying its history, identity, culture, and religious and linguistic unity. Ibn Bādīs pursued an educational approach to face the brutal French occupation on several fronts, including journalism, education, civil associations, politics, etc. This paper highlights the role of ‘Abd al-Ḥamīd ibn Bādīs in the advancement of the Algerian nation toward better education and a happier life. The paper begins with a brief canvas of the difficult times in which Ibn Bādīs lived, and the negative effects of the brutal French occupation from political, economic, social, cultural and religious angles, besides highlighting the life of Ibn Bādīs, his education and his local and international travels. The focus of this research is an in-depth examination of Ibn Bādīs’ social and educational efforts that consumed much of his daily routine: journalism, and education.

**Keywords:** Imām ‘Abd al-Ḥamīd ibn Bādīs, the French Occupation, Education, Algeria, Reform.

**Abstrak**

Imām ‘Abd al-Ḥamīd ibn Bādīs adalah seorang ahli sains dari Algeria, dan reformis sosial, agama, politik dan pendidikan yang terkemuka. Beliau hidup selama lima puluh tahun pada abad ke-20. Beliau dilahirkan pada tahun 1889 dan meninggal dunia pada tahun 1940, dan hidup semasa penjajahan Perancis yang cuba memutarbelitkan dan melemahkan asas-asas negara Algeria dengan memusnahkan sejarah, identiti, budaya dan perpaduan agama dan bahasa. Ibn Bādīs melaksanakan pendekatan pendidikan untuk menghadapi penjajahan Perancis yang kejam dalam pelbagai bidang, termasuk kewartawanan, pendidikan, persatuan-persatuan sivil, politik, dan lain-lain. Kajian ini menonjolkan peranan ‘Abd al-Ḥamīd ibn Bādīs dalam kemajuan negara Algeria ke arah pendidikan yang lebih baik dan kehidupan yang lebih bahagia. Kajian ini bermula dengan kanvas ringkas mengenai masa yang sukar di mana Ibn Bādīs hidup, dan kesan-kesan negatif penjajahan Perancis yang kejam dari sudut politik, ekonomi, sosial, budaya dan agama, di samping itu juga menyerlahkan kehidupan Ibn Bādīs, pendidikan beliau dan pengembaraan tempatan dan antarabangsa

beliau. Fokus kajian ini adalah pemeriksaan yang mendalam mengenai usaha sosial dan pendidikan Ibn Bādīs yang memakan masa lebih daripada rutin hariannya: kewartawanan, dan pendidikan.

**Kata Kunci:** Imām ʻAbd al-Ḥamīd ibn Bādīs, Penjajahan Perancis, Pendidikan, Algeria, Reformasi.

## المقدمة

لقد شهد عصر عبد الحميد بن باديس تحكّم الجاهلية الفرنسيّة في الجزائر، وتأثّر بعض النّخبة من أبناء الجزائر بالثّقافة الفرنسيّة، وكذا سيطرة الطرق الصوفية على الفكر الإسلامي سيطرة واسعة مما أدّى إلى انتشار البدع والخرافات والاعتقادات الواهية، هذه الحالة السيّئة أقلقت ضمير العلماء السّلفيّين المصلحين في الجزائر حتى كان لسان أحدهم يقول وهو الشيخ محمد بن مصطفى بن الخوجة (ت 1917م):

"فمن لكتاب الله يكشف سرّه *** ويشرحه وفق الفنون الحواضر"[1].

كان هذا العالم السنّيّ يدرك أنّ أفضل طريق لإخراج الأمّة الجزائرية من ظلمات الوهم والجهل إلى أنوار المعرفة والعلم ومن بحور الشّرك والشّهوات إلى جنات التوحيد والقربات هو تفسير كتاب الله عز وجل وفق مقتضيات العصر الحديث حتى يسهم في معالجة القضايا الفكرية والشرعية والتربوية التي ابتليت بها الأمة الإسلامية على العموم، والشعب الجزائري على الخصوص. وقد حقّق الله رغبة هذا العالم المصلح عندما شرع في تفسير القرآن الكريم تفسيراً شفوياً للناس في مسجد قسنطينة ابتداء من سنة (1913م)، وعمره يومذاك أربع وعشرون سنة، ولم يكتف ابن باديس بتفسير القرآن وتعليمه للناس في المساجد فقط، بل تعدّاه إلى الجمعيات والمؤسسات التربيوية

[1] رضا، محمد رشيد، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، (مصر، مطبعة المنار، ط1، 1931م)، ج3، 350.

والخيرية وأبرزها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، كما اقتحم أيضا بلسانه وقلمه عالمي الصّحافة والسّياسة ليسهم في نهضة الشعب الجزائري فكراً وعقيدةً وسلوكاً، ويمكن تلخيص أهداف التربية والتعليم الباديسية في النقاط الآتية:

1. إحياء اللّغة العربيّة والثّقافة الإسلاميّة في البلاد.
2. تقويّة الشّعور بالشّخصيّة الإسلاميّة الجزائريّة والدّفاع عنها.
3. تطهير الدّين من الخرافات والبدع.
4. المحافظة على التّراث العربيّ الإسلاميّ في الجزائر.
5. العمل على تحرير الجزائر من سيطرة الاحتلال الأجنبي[2].

بالفعل، لقد استطاع ابن باديس بفضل الله أولاً وآخراً ثم بفضل إخوانه العلماء الأفاضل تحقيق أهدافه عن طريق نشاطاته ومشاريعه المكثّفة، مثل تأسيس النّوادي، والمدارس الابتدائية، والكليّات الإسلامية، والجمعيّات، والمساجد، وإرسال البعثات الطلابيّة إلى الخارج، والقيام بأعمال الوعظ والإرشاد في كامل التّراب الوطني، وغير ذلك من الإنجازات التي حقّقها وإخوانه الأفاضل. ولنرجئ الحديث عن نشاطاته بتعمق في آخر البحث.

## الواقع الجزائري إبّان فترة الاحتلال الفرنسي

لقد ظلّ الشّعب الجزائريّ المسلم ردحاً من الزّمان يعاني من ويلات الاستعمار الفرنسي الذي احتلّ أراضيه سنة (1830م)، و لم يغتصب هذا المستعمر أرض الجزائر إلا بعد قيامه بدراسات وافية حول مكامن الضُّعف والقوة للجزائر التي كانت تمتلك أسطولاً بحريّاً قويّاً ظلّ لفترة من الزمن يذود عن بيضة الإسلام والمسلمين من أيّ

[2] انظر: رابح، تركي، **الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة**، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د، ط، د، ت)، ص 153.

هجوم أجنبيّ محتمل، وذلك بعد أن بدأت الدولة العثمانية التي كانت تبسط نفوذها على الجزائر تفقد هيبتها وقدرتها على حماية الدولة الإسلامية من أيّ احتلال أوربيّ.

لقد اكتشفت فرنسا من خلال دراساتها المعمّقة للجزائر أنّ الإسلام هو مصدر وحدة الشعب الجزائري، فعزمت على محاربته مستهدفة في ذلك مصادر الإسلام وهي: الكتاب، والسنّة، واللُّغة، والثقافة، والهُوية. وذلك عن طريق أربع سياسات منظّمة وهي: الفَرْنسة، والتجهيل، والتفقير، والتنصير.

وقد أصاب الشيخ البشير الإبراهيمي (ت 1965م) في وصفه للغزو الفرنسي فقال: "الاستعمار سِلٌّ يحارب أسباب المناعة في الجسم الصحيح؛ وهو في هذا الوطن قد أدار قوانينه على نسخ الأحكام الإسلامية، وعبث بحرمة المعابد، وحارب الإيمان بالإلحاد، والفضائل بحماية الرذائل، والتعليم بإفشاء الأميّة، والبيان العربي بهذه البلبلة التي لا يستقيم معها تعبير ولا تفكير"[3].

لم يكتف الاحتلال الفرنسي للجزائر بقوّته المادية فحسب، بل عمد إلى استخدام قوّته الروحية المتمثلة في المسيحية لتفعيل عملية التنصير في المناطق الأكثر فقراً وحرماناً[4]، وكذا استعمال بعض شيوخ الطرق الصوفية المخدوعين لتحقيق مراميها، فضلاً عن ذلك كان لليهود اليد الطولى في معاناة الشعب الجزائري إبّان الاحتلال الفرنسي الغاشم إلى درجة أن قال الشيخ محمد المقراني (ت 1871م) كلمته الشهيرة

---

[3] الإبراهيمي، أحمد طالب، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م)، عيون البصائر، ج3، ص 46-47.

[4] يرى الباحث عثمان سعدي أنّ المسيحية التي كان ينشرها المنصّرون الفرنسيون بالجزائر كانت وسيلة استعمارية، ولم تكن دعوة صادقة للدين المسيحي. انظر: سعدي، ثعمان، **عروبة الجزائر عبر التاريخ**، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1982م)، ص 10.

-بسبب قانون 24 أكتوبر (1870م) الذي يمنح الجنسية الفرنسية ليهود الجزائر-: "لا خير في دولة يفعل فيها يهودي ما يشاء"[5].

إزاء هذا الظلم والاستبداد المتواصل على الشعب الجزائري ظهرت حركات جهادية كثيرة، وكان في مقدمتها حركة الأمير عبد القادر بن محيي الدين (ت 1883م) التي ظهرت في غرب الجزائر سنة (1832م)، ويشهد له العقلاء والأحرار من النّاس أنّه قد أبلى بلاء حسناً في الذّبّ عن الدين والبلاد، ومن المواقف الحسنة التي سجّلها التاريخ في حقّ هذا الأمير، هو ملخص مكتوبه الذي بعثه إلى الجِنرَال (**General أي**: قائد الجيش) الفرنسي "بيجو"، حيث خاطبه قائلاً: "إلى الجنزال بيجو وسائرِ قُوَّادِ العسكر الفرنساوي في الجزائر، السّلام على من اتبع الهدى واجتنب الرَّدى أما بعد، فقد بلغني أنّكم جئتم من فرنسا إلى الجزائر لقتالنا بما ينوف عن ثمانين ألف جندي زيادة عن عساكركم السابقة فيها، فاعلموا أنني بعون الله وقوته لا أخشى كثرتكم، ولا أعتبر قوتكم، لعلمي أنّكم لا تضرّوني بشيء إلا أن يضرّني الله به، ولا يلحقني منكم إلا ما قدّره الله عليَّ وقضاه"[6]. وبعد انهزام الأمير عبد القادر سنة (1847م)[7]، استمرّت مقاومة الشعب الجزائري على شكل ثورات متعددة جيلا

---

[5] الميلي، محمد مبارك وشريط، عبد الله، **مختصر تاريخ الجزائر السياسي والثقافي والاجتماعي**، (الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، د.ط، 1985م)، ص 260.

[6] محمد بن الأمير الجزائري، أبو عبد الله، **تحفة الزائر في مآثر الأمير عبد القادر وأخبار الجزائر**، (الاسكندرية، المطبعة التجارية، د.ط، 1903م)، ج1، ص 250.

[7] يرى الأستاذ البشير الإبراهيمي أنّ من أكبر أسباب هزيمة الأمير عبد القادر استعانة فرنسا عليه بمشائخ الطرق الصوفية، وإعلان كثير من أتباعهم الخضوع لفرنسا، واستدل على ذلك بكلمة لقائد عسكري فرنسي معروف يقول فيها: "إن كسب شيخ طريقة صوفية أنفع لنا من تجهيز جيش كامل، وقد يكونون ملايين، ولو اعتمدنا في إخضاعهم على الأموال والجيوش لما أفادتنا ما تفيده تلك الكلمة الواحدة من الشيخ، على أنّ الخضوع لقوّتنا لا تؤمن عواقبه لأنّه ليس من القلب، أما كلمة الشيخ فإنها تجلب لنا القلوب والأبدان والأموال أيضاً". الإبراهيمي، أحمد طالب، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1997م)، ج5، ص 143.

بعد جيل في كل ناحية من الجزائر، فمنها: ثورة بو بغلة (ت 1854) سنة (1852م)، وثورة للا فاطمة نسومر (ت 1863م) سنة (1855م)، وثورة الشيخ الحدّاد (1873م) سنة (1871م)، وثورة الشيخ بوعمامة (ت 1908م) سنة (1881م)، وغيرها من الحركات الجهادية المباركة، وفي ظلّ هذه الأوضاع الحرجة، ومع مرور ستة سنوات من وفاة الأمير عبد القادر (ت 1883م)، يشاء الله أن يولد الشيخ عبد الحميد بن باديس سنة (1889م)، وقد شهد عصره تحوّلات خطيرة في شتى الميادين.

**على الصعيد السياسي**، انقسام آراء واتجاهات السياسيين إلى ثلاثة اتجاهات:

الاتجاه الأول: يرى السلامة في طلب مساواة الجزائريين بالفرنسيين المتجنّسين مع المحافظة على القانون الإسلامي للأحوال الشخصية.

الاتجاه الثاني: يرى السلامة في تطبيق سياسة الاندماج الكامل في فرنسا والتجنّس بجنسيتها مع التنازل الكامل عن القانون الإسلامي للأحوال الشخصية.

الاتجاه الثالث: اختار طريق العمالة للاستعمار الفرنسي وخيانة وطنه، وفي مقابل هذه الاتجاهات الثلاثة كانت هناك طليعة ثورية جزائرية طالبت بالاستقلال التام للجزائر، منذ عام (1927م)[8].

**وعلى الصعيد الاقتصادي**، شهدت الجزائر تدهوراً اقتصادياً عامّاً بسبب استيلاء المستعمر الفرنسي على الأموال والأراضي والأوقاف الإسلامية من جهة، وفرض الضرائب الثقيلة التي اضطرت الفلاّحين الجزائريِّين إلى بيع أراضيهم لمواجهة متطلبات الحياة الضرورية من جهة أخرى[9].

---

[8] لمزيد من التفاصيل، انظر: رابح، **الشيخ عبد الحميد بن باديس باعث النهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة**، ص 52-53.

[9] انظر: المرجع السابق، ج2، ص 120.

**وعلى الصعيد الاجتماعي**، أدّى تدهور الحالة الاقتصادية إلى تفشي البطالة، وانتشار الأوبئة والأمراض المُعْدِية، وظهور الخلافات المذهبية والعِرقيَّة الخطيرة التي أحدثها المحتلّ[10].

**أما على الصعيد الديني والثقافي**، فنلاحظ تراجع مستوى التعليم في الجزائر وانتعاش الطرقية[11] جرّاء استقوائها بالغازي مما سهّل على المحتلّ السيطرة على المؤسسات الدينية، وتدخلّه في شؤون المرأة الجزائرية، وسعيه لتشويه الدين الإسلامي عن طريق المستشرقين وبعثاته التنصيرية المكثّفة[12].

لم تكن "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس غافلة عن هذه التحوّلات، و لم تقف متفرجة أمام ما يخطط له الاحتلال الفرنسي، بل حسمت كثيراً من القضايا الأساسية التي كانت تشكل خطراً كبيراً على الإسلام واللّغة والهوية. عِلاوةً على ذلك، كان للجمعية الفضل الكبير في ظهور حركة التحرير الوطني المناهضة للاستعمار الفرنسي. وذلك دون التقليل من جهود رجال الإصلاح الجزائريين الآخرين مثل الشيخ صالح بن مهنّا (ت 1325هـ) ، والشيخ عبد القادر المجاوي (ت 1913م)، والشيخ المولود الزريبي (ت 1925م)، والشيخ عبد الحليم بن سماية (ت 1933م)، والشيخ محمد بن مصطفى بن خوجة (ت 1917م)، والشيخ مولود بن موهوب (ت 1930م) ، وآخرين. وأيضاً دون

---

[10] لمزيد من التفاصيل، انظر: مطبّقاني، مازن صلاح، **جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية الجزائرية**، (دمشق، دار القلم، بيروت، دار العلوم، ط1، 1988م)، ص 44.

[11] أي: بعض الطرق الصوفية التي حادت عن الصواب.

[12] انظر: المرجع السابق، ص 48.

إغفال مدرسة محمد عبده وأثرها في شحذ الهمم، وإحياء القلوب الميّتة، وبعث روح الصحوة الإسلامية من جديد[13].

## ابن باديس: حياته

### أ- مولده ونسبه

ولد الشيخ عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي بن باديس في ليلة الجمعة الرابع من شهر ديسمبر سنة (1889م) في مدينة قسنطينة بالشرق الجزائري، وكان الولد البكر لوالديه.

ووالده هو السيد مصطفى بن مكي بن باديس من حملة القرآن الكريم، ومن أعيان مدينة قسنطينة، وقد كان عضواً بالمجلس الجزائري الأعلى، والمجلس العمالي لمنطقة قسنطينة ونائبا عن مدينة قسنطينة. وقد عرف دائماً بدفاعه عن دعم مطالب السكان المسلمين بمنطقة قسنطينة. أما أمّه فهي السيِّدة زهيرة بنت علي بن جَلُّول من أسرة عبد الجليل المشهورة في قسنطينة بالعلم، والجاه، والثراء العريض[14]. ويرتفع نسبه إلى المُعزّ بن باديس بن منصور بن بُلُكّين بن زيري بن مَنَاد، وهذا الأخير يكنّى بأبي

---

[13] لا شكّ أنّ محمد عبده كان له تأثير شديد على الإصلاحيين والعلماء الجزائريين، وهذا ما سجلته زيارته الأولى للجزائر سنة (1903م) حيث استقبله الشعب الجزائري آنذاك بحفاوة وتكريم لا مثيل لهما، وحقّق محمد عبده فعلاً ما كان يرمي إليه من خلال زيارته للجزائر، وهو الاطلاع على أحوال المسلمين في هذا البلد الكريم، ومدى تأثير الإسلام فيه، وأيضاً الاجتماع فيها بخيار علمائها وعقلائها الأحرار الذين لهم القدرة على الإصلاح الديني والعقلي. وكان من هؤلاء العلماء الشيخ محمد بن خوجة صاحب المصنّفات، والأستاذ الشيخ عبد الحليم بن سماية اللذين كانا وغيرهما من المغتبطين بالمنار ولا سيّما دروس العقائد، وقد عهد إليه هؤلاء الفضلاء أن يوصي صاحب المنار بأن لا يذكر في مجلّته دولة فرنسا بما يسوؤها لئلا تمنع المنار من الجزائر. وقالا له: إننا نعدّه مدد الحياة لنا، فإذا انقطع انقطعت الحياة عنّا. وكانت بعد ذلك لمحمد عبده مراسلات مع الشيخ عبد الحليم بن سماية للوقوف على أحوال الجزائر. راجع بتوسع: رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، ج1، 872.

[14] انظر: رابح، **الشيخ عبد الحميد ابن باديس باعث النّهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة**، ص 13.

الفتوح، ويلقّب بسيف الدولة، وقبيلته هي صِنهاجة من بطون البُرانس، وهي من أوفر قبائل البربر كما يقول ابن خلدون[15]. ومن جدود عبد الحميد المشهورين، والذين كان يفتخر بهم: المعز بن باديس (ت 454 هـ) الذي كان يحارب الإسماعيلية الباطنية، وبدع الشيعة في إفريقية[16]، قال عنه الذهبي في السير: "وكان ملكاً مهيباً، سريّاً شجاعاً، عالي الهمّة، محبّاً للعلم، كثير البذل، مدحته الشعراء. وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثُر بإفريقية، فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمادّة الخلاف.."[17].

ومن أسلاف عبد الحميد المتأخرين، قضاة قسنطينة المشهورين مثل أبي العبّاس بن باديس، ومكّي بن باديس[18].

**ب- نشأته وتكوينه العلمي**

**- المرحلة الأولى: تعليمه الأوّلي: (1889م- 1908م)**

حفظ ابن باديس القرآن على الشيخ محمد المداسي، وختم حفظه في السنة الثالثة عشرة من عمره، ومن شدّة إعجاب الشيخ بذكائه وسيرته الطيّبة قدّمه ليؤمَّ الناس في صلاة التراويح بالجامع الكبير ولمدة ثلاث سنوات متتابعة، وفي سنة (1903م) دخل الشابّ ابن باديس في طور جديد من أطوار دراسته فخيّره والده بين أن يسلك طريق أجداده أو طريقاً آخر، فاختار طريق سلفه وهو طريق العلم والجهاد، فاختار له أبوه أحد الشيوخ الصالحين من ذوي العلوم الإسلامية والعربية

---

[15] انظر: ابن خلدون، عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1992م)، مج6، ص 179.

[16] انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج1، ص 72.

[17] الذهبيّ، شمس الدين، **سير أعلام النبلاء**، (بيروت، مؤسسة الرسالة، ط11، 1422هـ- 2001م)، ج18، ص140.

[18] انظر: الطالبي، عمّار، **ابن باديس حياته وآثاره**، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1968م)، ج1، ص 73.

وهو أحمد أبو حمدان الونيسي الذي كان منتمياً إلى الطريقة التيجانية سالكاً منهجها، فأخذ يعلّمه بجامع سيدي محمد النجّار مبادئ العربية والعلوم الإسلامية ويوجهه وجهة علمية أخلاقية. ثم هاجر حمدان الونيسي إلى المدينة المنورة وبقي فيها إلى أن توفاه الله[19].

وحين بلغ ابن باديس الخامسة عشرة من عمره (1904م) زوّجه والده، وأنجب ولداً أسماه عبده إسماعيل (1337هـ)[20]، حفظ القرآن وحضر العلم[21]، توفّي وعمره سبعة عشر عاماً[22]. وبعدها لم يعقّب.

**– المرحلة الثانية: تعليمه العالي: (1908م – 1913م)**

في هذه السنة بدأت همّة ابن باديس تتطلع إلى السّفر لطلب العلم اقتداءً بعلماء السَّلف والخلف الذين تجرّعوا مرارة المعاناة من أجل تحصيل العلم النافع، وقد سافر ابن باديس الشابّ إلى مدينة تونس وعمره وقتذاك تسعة عشر عاماً، وانتسب إلى جامع الزيتونة، وعُرِف في دراسته بالجدّ والنشاط، فأخذ يتلقى الثقافة الإسلامية العربية، ويأخذ عن جماعة من أكابر علماء الزيتونة أمثال العلامة المفكّر محمد النخلي القيرواني (ت 1924م)، والشيخ محمد الطاهر بن عاشور، والشيخ الخضر بن الحسين (ت 1958م)، والشيخ محمد الصادق النيفر (ت 1938م)، والأستاذ البشير صفر (ت 1917م)، والأستاذ أبي محمد بلحسن ابن الشيخ المفتي محمد النجار (ت 1953م)، وغيرهم كثير[23]. وتخرّج بشهادة العالمية في سنة (1911م-1912م)

---

[19] انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج1، ص 74.

[20] انظر: المرجع السابق، ج1، ص 74.

[21] انظر: ابن باديس، عبد الحميد، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، جمع وترتيب: توفيق محمد شاهين، محمد الصالح رمضان، تحقيق: أحمد شمس الدّين، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط1، 1995م) ص 6.

[22] انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج1، ص 74.

[23] انظر: انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره** ، ج1، ص 75-76.

وعمره ثلاث وعشرون سنة، ودرّس سنة واحدة في جامع الزيتونة على عادة المتخرجين في ذلك الوقت[24]، وفي عام (1913م) عاد ابن باديس من تونس إلى مسقط رأسه بمدينة قسنطينة في الشرق الجزائري، وفي السنة نفسها اشتاق لرؤية بيت الله الحرام، وزيارة أقطار المشرق العربي. فزار المدينة المنوّرة ومكث فيها ثلاثة أشهر، ألقى فيها دروساً عديدة في مسجد رسول الله ﷺ[25]، وخلال زيارته للمدينة، زار أستاذه المهاجر حمدان الونيسي، وكما التقى بالشيخ محمد البشير الإبراهيمي وتدارس معه وضعية الجزائر وضرورة إنشاء "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، وإن تأخّر إنشاؤها حتى سنة 1931م، لأسباب تتعلّق بالتوقيت وتحيّن الفرص المتاحة.

أيضاً زار ابن باديس لبنان وسوريا ومصر، وفي طريق عودته، أجازه الشيخ محمد بخيت المطيعي (ت 1935م) وهو من كبار علماء الأزهر بشهادة العالمية من الأزهر الشريف[26]. وقد أتاحت هذه الرّحلات لابن باديس فرصة كبيرة لتقوية معارفه وتوسيع مداركه، واطّلاعه على الأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية السائدة في العالم الإسلامي آنذاك.

**– المرحلة الثالثة: أسفاره ورحلاته المحليّة: (1913م– 1940م)**

عرفت تنقّلات ابن باديس في ربوع الوطن الجزائري التفاف النّاس حوله يسألونه ويستمعون إليه بذلّة المحب للعلم والعلماء، ومثل هذا المظهر الذي رآه ابن باديس في قلوب عامّة الجزائريّين من تعظيمٍ للعلم، وانقيادٍ لأهله، زاده صلابةً وعزيمةً وتوكّلاً على الله في مواصلة تكوينه العلمي الذي لم ينته بمجرّد جلوسه بين يدي

---

[24] انظر: المرجع السابق، ج1، ص 76.

[25] انظر: رابح، **الشيخ عبد الحميد ابن باديس باعث النّهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة**، ص 25–29.

[26] انظر: ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 7.

مشايخه وحصوله على الشهادة العالمية، وإنّما العلم يتحقق بالتعلّم والتمرّس، ونماؤه يكون بتعليمه والعمل به. وكلّ ذلك تحقق لابن باديس.

في هذه المرحلة يحاول الباحث تسليط بعض الضوء على رحلات ابن باديس وأسفاره التي كانت سبباً في استكمال مرحلة تكوينه العلمي. وقبل البدء في الحديث نودّ الإشارة إلى أمرين:

**الأمر الأوّل**: أنّ هذه الرحلات المتواصلة أتاحت لابن باديس فرصة الاطلاع على أحوال المواطنين الجزائريين، والتعرّف على نشاط التنصير، ونشر الثقافة الفرنسية في بعض جهات الوطن، فضلاً عن مقابلة بعض شيوخ الطرق الصوفية، ومحاورتهم، ودعوتهم لحسم النّزاع بالرجوع إلى الكتاب والسنة. كل هذا وغيره من الأسباب جعلت ابن باديس يخصّص جزءاً من وقته -رغم كثرة انشغالاته- للمطالعة، والبحث، والتنقير، أملاً منه أن يضع حدّاً مناسباً لمشاكل الأمّة الرئيسة، وحرصاً منه على خدمة الإسلام والعربية.

**والأمر الثاني**: إنّ كثيراً من الباحثين، والدارسين لابن باديس يركّزون في خطاباتهم على القول بأنّ هذه الرّحلات كانت وسيلة من وسائل الإصلاح العام والدعوة الإسلامية، إلا إنهم لم ينتبهوا إلى أن مثل هذه الرحلات المكثّفة قد أسهمت في التكوين العلمي والمعرفي لابن باديس.

كان أوّل ما يقوم به ابن باديس في رحلاته هو زيارة مساجد الرّيف الجزائري التي يقصدها باعتبارها مراكز إشعاع علمي، ولأنّ الابتداء بزيارة المسجد يعدّ سنة، وذلك عملاً بالحديث الطويل المشهور الذي رواه البخاري في صحيحه أنّ كعب بن مالك قال: "كان النبيّ ﷺ إذا قدم من سفرٍ، بدأ بالمسجد فصلّى فيه"[27]. وابن باديس

---

[27] البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع المسند الصحيح من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيّامه**، (بيروت، دار الكتب العلمية، ط2، 2002م)، كتاب الصلاة: باب الصلاة إذا قدم من سفر، مج1، ص 113.

كان يدرك كُنْهَ هذه السُنَّة النبويّة الشريفة، وهي: أنّ البداءة بالصلاة في المسجد عند القدوم من السفر يلفت نظر الأمّة إلى حرمة المسجد، وفضله، وعظمته في الإسلام، وأنّه الأحقّ بأن يقصد عند الملمّات للوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى، والسّجود بين يديه، لأنّ العامّة كانوا متأثّرين ببعض أفكار الطرق الصوفية مما نتج عن ذلك توجه كثير منهم إلى الأضرحة مظهرين فيها من الخشوع والخضوع ما لا يُرى منهم في بيوت الله، وهذا كلّه يحصل بسبب الجهل، والغفلة، والسكوت عن الحق، وقعود من لا يجوز لهم القعود عن التعليم، والتبيين على حدّ تعبيره[28].

بعد زيارة ابن باديس المسجد، والصلاة في رحابه، ينصرف مباشرة إلى زيارة ممثل الحكومة في البلدة، ثم زيارة رئيس البلدية، وهذا إن ذكَّرَنا بشيء فإنّما يذكّرنا بما كان يفعله النبيّ ﷺ في رحلاته من اتصالاتٍ بشيوخ القبائل وزعمائها، من أجل استمالتها ودعوتها إلى الإسلام، وتقليل شرّها عن المسلمين[29]. وابن باديس بطبيعة الحال له اطّلاع واسع بسيرة النبي المصطفى ﷺ، لأجل ذلك عمل على زيارة أصحاب القرار السياسي، ورئيس البلدية، لكسب دعمهم، وسندهم لدعوته الرسمية المتمثلة في "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين"، أو على الأقل كفّ شرّهم عن دعوته، وإخوانه. يصف ابن باديس رحلاته بعد حديثه عن زيارته للمسجد قائلاً: "ثمَّ أزور ممثل الحكومة في البلدة من بريفي (**Prefect** أي: المحافظ)، أو سوبريفي (**Sub-prefect**

---

[28] انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج4، ص 317-318.

[29] قال ابن اسحاق: "فكان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في المواسم، إذا كانت، على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنّه نبيّ مرسل، ويسألهم أن يصدّقوه ويمنعوه حتى يبيّن لهم الله ما بعثه به" راجع: ابن هشام، أبو محمد، **السيرة النبوية**، ت: جمال ثابت وآخرون، (القاهرة، دار الحديث، 2003م)، باب: عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل، ج2، ص، 306.

أي: نائب المحافظ)، أو متصرِّف (**Manager**)، ثم أزور ممثل الأمّة الفرنسية، والعربية، وهو المير (**Mayor** أي: رئيس البلدية) إذا كان بالبلدة مير"[30].

وبعد انتهاء ابن باديس من زياراته لرؤساء المنطقة، يتوجّه مباشرة إلى تحقيق هدفه الأسمى، وهو تعليم الناس في المساجد، أو الزوايا، أو المنازل.

أما عن نوعية هذا التعليم فيقول ابن باديس: "ما كنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله، والتفقه في الدّين، والرّجوع إلى كتاب الله، وسنّة رسوله، ورفع الأميّة، والجدّ في أسباب الحياة من فلاحة، وتجارة، وصناعة، وإلى اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب، وطريقة، وجنس، وبلد، وإلى حسن المعاملة، والبعد عن الظلم، والخيانة مع المسلم، وغير المسلم، وإلى التزام القوانين الدولية التي لا بدّ منها لحفظ النظام. كنت أذكرهم بهذا كله، وأقرأ على وجوههم سمات القبول، والإذعان، وأنا على يقين من بقاء أثر نافع لذلك بصدق قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾"[31] [الذاريات: 55].

فضلاً عن ذلك، كان ابن باديس يدعو عموم الناس، وخواصّهم في دروسه، ومواعظه إلى تحقيق الأخوة الإسلامية، ولزوم التعاون والتفاهم، ونبذ الاختلاف، والشقاق، والتفرّق المذموم التي حذّرت منه الشريعة الغرّاء، يقول رحمه الله: "وأن لا نجعل القليل مما نختلف فيه سبباً في قطع الكثير مما نتفق عليه، وأنّ الاختلاف بين العقلاء لا بدّ أن يكون ولكن الضارّ والممنوع المنع البات هو أن يؤدِّينا ذلك الاختلاف إلى الافتراق"[32].

وكان من عادته بعد الدّرس تعريف الناس بالجمعية، ومقاصدها حسبما هو مبيّن في قانونها الأساسي، ثمّ يبيّن لهم أنّ الجمعية تَسَعُ الجميع على اختلاف مشاربهم،

---

[30] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج4، ص 318.

[31] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج4، ص 297.

[32] المرجع السابق، ج4، ص 311.

وأنّها ليست ضدّاً لأحد لا للزَّوايا، ولا لغيرها، وأنّ غرضها هو نشر العلم والفضيلة بين الجميع على حدّ تعبيره[33]، وفي الوقت نفسه كان يردّ كلّ الإشاعات الباطلة عن الجمعية[34].

ويُذكَر أنّه كان في أسفاره كلّها يحرص على محادثة العلماء والمرشدين، وقد عدّد رحمه الله أسماءً كثيرة في مجلّة الشّهاب[35]، كما أنّه أيضاً كان يجالس من يخالفونه في الرأي، فيدعوهم إلى الاحتكام بكتاب الله، وسنّة نبيّه ﷺ ليُحِدَّ من قضيّة الاختلاف في المسائل الأصلية، وكان ممن جالسهم: الشيخ سيدي أحمد بن عليوة (ت 1934م) الصوفي، وغيره[36].

### ج- عوامل تكوين شخصيته

هناك خمسة عوامل أساسية أدّت إلى تكوين شخصية عبد الحميد بن باديس، وهذه العوامل كلّها قد تم استخراجها من كلمة بليغة ألقاها ابن باديس بمناسبة حفل أقيم له على شرف ختمه لتفسير القرآن الكريم.

**العامل الأول:** في تكوين شخصيّته من الناحية العملية والعلمية، يرجع إلى أسرته المحافظة، وخصوصاً والده الذي كان من ذوي الفضل والإحسان والصلاح، وعن أهمية هذا العامل الذي كان له الأثر العميق في حياته وتكوينه قال ابن باديس: "إن الفضل يرجع أوّلاً إلى والدي الذي ربّاني تربية صالحة ووجهني وجهة صالحة. ورضي لي العلم طريقة اتبعها ومشرباً أردّه، وقاتني وأعاشني وبراني كالسهم وراشني

---

[33] انظر: المرجع نفسه، ج4، ص 318.

[34] انظر: المرجع نفسه، ج4، ص 319.

[35] أمثال: الشيخ الوانوغي، والشيخ طالب شعيب، والشيخ بلقاسم بن حلوش، والشيخ أبو عبد الله آل أبي عبد الله، والشيخ عبد القادر بن قارة، والشيخ عبد اللطيف القنطري، والشيخ أحمد بن مولود، وشيوخ كثير. انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج4، ص 297-324.

[36] انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج4، ص 297-324.

وحماني من المكاره صغيراً وكبيراً وكفاني كُلَفَ الحياة"[37]. ويضاف إلى هذا العامل أيضاً: أن نفسية عبد الحميد بن باديس كانت تنفر بطبيعتها من الانغماس في الأمور المادية التي ابتليَ بها بعض الشباب في ذلك الوقت.

**والعامل الثاني**: يرجع إلى مشايخه ومربّيه الذين وجهوه وجهة علمية وعملية صحيحة، حيث شدّدوا عليه أن لا يتخذ علمه مطيّة لتحقيق أغراضه الشخصية، ولا أن يبيع به آخرته بدنياه بَلْهَ بدنيا غيره، وكرّهوا إليه التقليد وآراء الرجال المضطربة، وحبّبوا إليه الأخذ بالصحيح من الأقوال حتى يطمئن القلب وتستكين النّفس. يحدثنا ابن باديس في هذا الشأن فيقول: "وأذكر منهم رجلين كان لهما الأثر البليغ في تربيتي وفي حياتي العملية، .. أحد الرجلين الشيخ حمدان الونيسي القسنطيني نزيل المدينة المنورة ودفينها، وثانيها الشيخ محمد النخلي المدرس بجامع الزيتونة المعمور رحمهما الله"[38]. ثم يحدثنا ابن باديس عن سبب هذا الأثر البليغ الذي كان له وقع كبير في تربيته، وفي حياته العملية فيقول: "وإنّي أذكر للأول وصية أوصاني بها، وعهداً عهد بي إليّ، وأذكر ذلك العهد في نفسي، ومستقبلي، وحياتي، وتاريخي كلّه، فأجدني مديناً لهذا الرجل بمنّة لا يقوم بها الشّكر، فقد أوصاني وشدَّد عليَّ أن لا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت، ولا أتّخذ علمي مطيّة لها كما كان يفعله أمثالي في ذلك الوقت.

وأذكر للثاني كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العلمية عن أثر تلك الوصية في ناحيّتي العملية وذلك أني كنت متبرّماً بأساليب المفسرين، وإدخالهم لتأويلاتهم، واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله، ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن، وكانت على ذهني بقيّة غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في

---

[37] المرجع السابق، ج2، ص 138.

[38] المرجع نفسه، ج2، ص 138.

دين الله وكتاب الله. فذاكرت يوماً الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرّم والقلق فقال لي: اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة وهذه الآراء المضطربة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح.

فوالله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة عن ذهني آفاقاً واسعة لا عهد له بها"[39].

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ ابن باديس لّما أخذ بوصيّة شيخه في عدم الاقتراب من الوظائف الحكومية بحكم أنّها تمنع صاحبها من قول الحقّ والصّدع به، أوصى تلامذته أيضاً وشدّد عليهم أن يزهدوا في الوظائف الحكومية. ومن وصاياه لهم قوله: "أمّا الأمور الحكومية وما يتصل بها فدعوها لأهلها وإياكم أن تتعرَّضوا لها بشيء"[40]. والوظيفة المذمومة التي أوصى ابن باديس بالزهد فيها –فيما أعتقد– هي التي تكون لصاحبها قيداً وسجناً تمنعه عن قول الحقّ، أما التي تكون عوناً لصاحبها لعمل الخيرات فهي محمودة لا شكّ في ذلك. قال ابن باديس بمناسبة حفلة ذكرى وفاة الشيخ البشير صفر رحمه الله سنة (1937م): إنّ لهذا السيّد العظيم البشير صفر نواحي ثلاثاً جديرة بالتنويه، –وذكر منها–: "إنّه دخل الوظيف[41] فلم يكن الوظيف له سجناً أو قفصاً أو قيداً، إذ الوظيف لا يكون بمثابة السجن والقيد إلا للصِّغار من الناس لا لعظماء الرجال. فلقد أدّى السيّد البشير صفر –وهو في الوظيف– للصحافة والفلاحة والمعارف أجل الخدمات"[42].

---

[39] المرجع نفسه، ج2، ص 138-139.

[40] المرجع نفسه، ج3، ص 223.

[41] الوظيف بمعنى الوظيفة أي: العمل.

[42] المرجع نفسه، ج4، ص 328.

ويضاف إلى ما ذكرناه من مشايخ ابن باديس:

– الشيخ ابن عاشور الذي يصفه ابن باديس بأنه ثاني الرجلين[43] اللذين يشار إليهما بالرسوخ في العلم، والتحقيق في النّظر، والسموّ والاتساع في التفكير على حدّ تعبيره[44]، وقد درّس ابن باديس الأدب العربي، وحبّب إليه التفقه في كلام العرب. قال ابن باديس واصفاً فضل شيخه عليه: "وإن أنس فلا أنسى دروساً قرأتها من ديوان الحماسة على الأستاذ ابن عاشور، وكانت من أوّل ما قرأت عليه فقد حببتني في الأدب والتفقه في كلام العرب وبثت فيّ روحاً جديداً في فهم المنظوم والمنثور وأحيت منّي الشعور بعزّ العروبة والاعتزاز بها كما أعتزّ بالإسلام"[45].

– والشيخ طاهر الجزائري (ت 1920م) الذي يصفه ابن باديس بأنه ربَّى عقله، وحبّب إليه الاتجاه الفكري على حدّ تعبيره[46]، وقد نشر ابن باديس في الشهاب ترجمة طويلة للشيخ الطاهر نقلاً عن مجلة المجمع العلمي العربي بسوريا[47].

– والشيخ جمال الدّين الأفغاني، والشيخ محمد عبده، والشيخ رشيد رضا الذي وصفه ابن باديس بأنه مجتهد العصر، وبأنه حجة الإسلام، وقد ترجم له في الشهاب ترجمة وافية[48]، وغيرهم ممن كان لهم تأثير في تكوين شخصيته.

– وأمّا الصنف الثاني من شيوخه، فهم الذين لم يعاصرهم، وإنما تأثّر بنهجهم وأثرهم، ومنهم على سبيل التمثيل لا الحصر: الإمام الغزالي، وكان ابن باديس يسمي

---

[43] أول الرجلين هو الشيخ محمد النخلي القيرواني رحمه الله..

[44] لمزيد من التفاصيل، انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره** ، ج3، ص 74.

[45] المرجع السابق، ج3، ص75.

[46] انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج4، ص148.

[47] قال ابن باديس: "ألقى الأستاذ محمد كرد علي وزير المعارف بسورية محاضرة عن حياة هذا الأستاذ الكبير (أي: الشيخ طاهر الجزائري) ونشرتها مجلة المجمع العلمي العربي فرأينا نقلها لقرّاء "الشهاب" لما فيها من فوائد علمية وعبر تاريخية للمتأمّلين". انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج4، ص152.

[48] انظر: المرجع السابق، ج4، ص195.

كتابه (إحياء علوم الدين) بكتاب الفقه النفسي، والإمام أبو بكر بن العربي الذي نبهه إلى كتابه (العواصم من القواصم) شيخه اللامع محمد النخلي القيرواني فاستنسخه وحققه وطبعه[49]، والإمام ابن تيمية وسلفيته[50].

**والعامل الثالث:** يتمثل في الشعب الجزائري وما ينطوي عليه من صفات كريمة وخِلال مرضية، والاستعداد التامّ للبذل، والعطاء، والتضحية في سبيل خدمة الإسلام والعروبة والهُوية. يصف ابن باديس هذه الأمّة الجزائرية فيقول بأنها: "أمّة مِعْوانة على الخير، مُنطوِية على أصول الكمال ذات النّسب العريق في الفضائل، والحسب الطويل العريض في المحامد"[51].

**والرّابع:** يعود إلى مؤازرة ومساعدة إخوانه وأصدقائه في "جمعية العلماء المسلمين الجزائريين" الذين دافعوا معه بقوّة وإخلاص عن الإسلام والعروبة والـــهُوية، وتكبّدوا معه المشاقَّ وركبوا الصِّعابَ من أجل إعلاء كلمة الله في وقت قلّ فيه الرّجال، وكثرت فيه الأعباء. يقول رحمه الله: "إذا كنت أستمدّ القوّة والحياة فإنّما أستمدّهما ممن أولوني شرف الثقة والإخلاص لديني ولأمّتي وأخص منهم الأسود الكبار، وهم إخواني الأقوياء من رجال العلم الذين أجدني مهما وقفت موقفاً إلاَّ وجدتهم معي كالأسود"[52].وأبرز هؤلاء الأسود هم: الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ الطيّب العقبي (ت 1960م)، والشيخ العربي بن بلقاسم التبسّي (ت 1957م)، والشيخ مبارك بن محمد الميلي (ت 1945م).

**وأما العامل الخامس والأخير:** من عوامل تكوين شخصيّته هو "القرآن الكريم"، وهذا العامل الذي كرّس له ابن باديس ربع قرن من الزمان يسبق مرتبةً كل

---

[49] انظر: المرجع نفسه، ج1، ص 92..

[50] انظر: ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 8.

[51] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج2، ص 140.

[52] المرجع السابق، ج2، ص 144.

العوامل الأخرى، وهو قادر على أن يكوّن رجالاً من الخلف كما كوّن رجالاً من السلف لو أُحسِن فهمه وتدبّره وحُمِلَت الأنفس على العمل به والسير على منهاجه. يوضّح لنا ابن باديس أهميّة هذا العامل فيقول: "ثم الفضل أوّلاً وأخيراً لله ولكتابه الذي هدانا لفهمه، والتفقه في أسراره، والتأدّب بآدابه. وإن القرآن الذي كوّن رجالَ السّلف لا يكثر عليه أن يكوّن رجالاً في الخلف لو أحسن فهمه، وتدبره، وحملت الأنفس على منهاجه"[53].

**د- آثاره**

لم يعكف عبد الحميد بن باديس على كثرة التأليف مثل غيره من علماء السلف والخلف، وإنّما كان يميل إلى كتابة بعض المقالات والبحوث التي كان ينشرها في بعض الجرائد. ويرجع هذا بطبيعة الحال إلى البيئة التي نشأ فيها وترعرع، فما كان مطلوب منه في ظل الاستعمار، هو توعية العامّة من الناس بدينهم، ولغتهم، وثقافتهم، وهُويتهم، وأصولهم، ومن هنا فقد أثر عنه قوله: "شَغلَنا تأليف الرّجال[54] عن الكتب"[55]. و لم يخلّف لذلك كتباً كثيرة، ولكن خلّف رجالاً ليورّثوا عمله الدعوي والتعليمي. وقد يستدلّ على هذه الرؤية بما ذكره الباحث لوثروب ستودارد الأمريكي (**Stoddard Lothrop**) نقلاً عن إسماعيل حامت قوله: "لا تقاس حضارة أمّة بما في كتبها الدينية من السطور والعبارات، بل بما تقوم به تلك الأمّة من الأعمال"[56].

---

[53] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره** ، ج2، ص 142.

[54] أبرز تلاميذ الشيخ ابن باديس رحمه الله: مبارك الميلي، الفضيل الورتيلاني، محمد سعيد الزاهري، أحمد حماني، عبد الرحمن شيبان، محمد الصالح بن عتيق، محمد الصالح رمضان، عبد اللّطيف سلطاني، وأحمد سحنون.

[55] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 14.

[56] لوثروب ستودارد، **حاضر العالم الإسلامي**، تعليق: الأمير شكيب أرسلان، (د.ت، د.ط)، ج1، مج1، ص 269.

لقد أدرك الأستاذ ابن باديس هذه الفلسفة، لذلك نلفيه يؤثر تأليف الرّجال على تأليف الكتب نظراً لأنّه كان يرى الأمّة الجزائرية آنذاك ليست بحاجة إلى التصانيف والتواليف، وإنما هي بحاجة إلى كوادر وقيادات ينقذونها من هذا البؤس الشّديد الذي تعيشه منذ زمن مديد. إذاً فابن باديس كان يرى أنّ تأليف الكتب مشغلة عن أداء العمل الدعوي، والواجب التعليمي على الوجه الذي يرقى به المجتمع الجزائري[57].

من جانب آخر يروي لنا الأمير شكيب أرسلان قصّة مجيء الشيخ إبراهيم التادلي (ت 1894م) من أكابر علماء المغرب إلى بيروت حينما كان الأستاذ الإمام محمد عبده فيها، ودار بينهما حديث ونقاش، وكان مما أعجب به محمد عبده من كلام هذا العالم هو أن الشيخ محمد عبده سأله: هل في المغرب اليوم مؤلفون في أصناف العلوم المختلفة؟ فأجابه التادلي: نعم يوجد مؤلفون في المغرب إلاّ أنّ العلم لا ينتشر بقوّة التأليف وإنّما ينتشر بقوّة التدريس وكثرة المذاكرة الشفوية[58]. والشاهد هنا هو أن الشيخ التّادلي كشف لنا سبباً آخر عن قلّة التأليف، وهو أن العلم عند سكان المغرب العربي لا ينتشر بكثرة التأليف، وإنّما بكثرة التدريس والمذاكرة، وهذه ميزة يمتاز بها سكان المغرب على سكان المشرق. وعلى الجملة فإن كثرة التأليف وقلّته يختلف من بيئة لأخرى، ومن مجتمع لآخر، وقلّته أو كثرته ليس دليلاً على تقدّم

---

[57] وصديقه المقرّب الأستاذ البشير الإبراهيمي هو أيضاً لم يتفرّغ للتأليف، وسئل عن ذلك فأجاب: "لم يتسع وقتي للتأليف مع هذه الجهود التي تأكل الأعمار أكلاً، ولكنني أتسلى بأنني ألفت للشعب رجالاً، وعملت لتحرير عقوله تمهيداً لتحرير أجساده، وصححت له دينه ولغته فأصبح مسلماً عربيّاً، وصححت له موازين إدراكه فأصبح إنساناً أبيّاً، وحسبي هذا مقرباً من رضى الربّ ورضى الشعب". انظر: الإبراهيمي، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، ج5، ص 143.

[58] انظر: رشيد رضا، **تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده**، ج1، 411- 412.

حضارة أمّة أو تأخرها، وإنما بما تقوم به هذه الأمّة من أعمال وتضحيّات في شتّى الميادين.

من أهمّ ما وصلنا من كتابات ابن باديس هو ما جمعه ورتّبه الأستاذ الباحث عمار الطالبي الجزائري في مصنّفه الذي أسماه: (**ابن باديس حياته وآثاره**).

وهذا المصنّف هو مرجع جيّد، ولا غنى عنه لكل من أراد أن يكتب حول ابن باديس. وهو هامٌّ للعلماء والباحثين في حركات التجديد الإسلامي المعاصر في العالم الإسلامي برمّته.

يقع هذا المصنّف في أربعة أجزاء، وهو عبارة عن مجموعة كبيرة من المقالات السياسية، والاجتماعية، والخطب، والدروس الدينية المتعلقة بالتفسير والحديث، نشرت في مجلة الشهاب، وعدة صحف بقلم الشيخ عبد الحميد بن باديس.

**ر- ثناء العلماء عليه**

كان ابن باديس طوال حياته يتصف بطبع اجتماعي متواضع، يعلّم، ويرشد، ويشارك، ويحرّر، ويعظ، وينصح، ويأمر، وينهى، ولا يخاف في الله لومة لائم، ولا صولة جائر. لأجل ذلك كانت له مساحة كبيرة في نفوس شيوخه، وزملائه، وأتباعه، ومحبّيه، وقد شهدوا له جميعاً بالفضل والزهد والعلم في حياته وبعد مماته.

قال الشيخ البشير الإبراهيمي في مقال له يثني فيه على الشيخ ابن باديس[59]: "باني النهضتين العلمية والفكرية بالجزائر؛ وواضع أسسها على صخرة الحق؛ وقائد زحوفها المغيرة إلى الغايات العليا؛ وإمام الحركة السلفية؛ ومنشئ مجلة "الشهاب" مرآة الإصلاح وسيف المصلحين؛ ومربّي جيلين كاملين على الهداية القرآنية والهدي المحمدي وعلى التفكير الصحيح، ومُحيي دوارس العلم بدروسه الحية، ومفسّر كلام

[59] عنوان المقال: (الرجال أعمال، محمد الطاهر بن عاشور وعبد الحميد بن باديس إماما النهضة العلمية في الشمال الإفريقي).

الله على الطريقة السلفية في مجالس انتظمت ربع قرن، وغارس بذور الوطنية الصحيحة، وملقّن مباديها؛ علم البيان، وفارس المنابر، الأستاذ الرئيس الشيخ عبد الحميد بن باديس، أول رئيس لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأول مؤسس لنوادي العلم والأدب وجمعيات التربية والتعليم، رحمه الله ورضي عنه"[60]. وقد عدّه الأستاذ عمار الطالبي شخصية عجيبة[61]. واعتبره الأستاذ تركي رابح واحداً من أقطاب مدرسة التجديد الإسلامي في المغرب العربي[62].

أمّا محمد الصالح رمضان فيرى فيه صورة الحواريين والصحابة.[63] بينما مالك بن نبيّ (ت 1973م) فيشبّه كلمات ابن باديس بمعجزة البعث[64].

قال الشيخ أنور الجندي (ت 2002م): "عبد الحميد بن باديس داعية الإسلام والعروبة والجزائر"[65].

وأذكر أنّ أستاذنا وصديقنا حازم زكريا كان معجباً بأفكار ابن باديس، وكثيراً ما كان يحدثني عن إنجازاته حتى وصفه في رسالته للدكتوراه بـــ: "شيخ الإصلاح في الجزائر"[66].

---

[60] الإبراهيمي، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، ج3، ص 552.

[61] انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج1، ص 94..

[62] انظر: رابح، **الشيخ عبد الحميد ابن باديس باعث النّهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة**، ص 6.

[63] انظر: مطبقاني، **عبد الحميد ابن باديس الزعيم الرباني والزعيم السياسي**، ص 7.

[64] انظر: ابن نبي، مالك، **شروط النهضة**، (بيروت، دار الفكر، ط4، 1987م)، ص 26.

[65] الجندي، أنور، **تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي**، (القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ط1، 1970)، ص 197.

[66] محي الدين، حازم زكريا، **الإصلاح السياسي عند مفسري القرآن الكريم في النّصف الأول من القرن العشرين رشيد رضا وطنطاوي جوهري نموذجاً**، (رسالة دكتوراه قدّمت إلى: الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا، 2007م)، ص 6.

**ز- وفاته**

واصل ابن باديس مسيرته العلمية والدعوية، بلا كلل ولا ملل، ولم يحِدْ عن فكرته الإصلاحية التي كان يؤمن بها قيد أنملة حتى "جاءه الأجل المحتوم وانتقل للرفيق الأعلى في مساء الثلاثاء 8 ربيع الأول 1359هـ 16 أفريل 1940م فتحركت قسنطينة بأكملها لتشييع جنازته، وكان يوما مشهوداً في ظروف قاسية وأزمة عالمية تمثلها حرب طاحنة، ودفن في روضة أسرته بحي الشهداء قرب مقبرة قسنطينة"[67]. وقد كانت إقامته قبل وفاته محددة من طرف الإدارة الاستعمارية في الجزائر في مدينة قسنطينة لا يجوز أن يبرحها إلى غيرها من نواحي القطر الجزائري الأخرى[68].

قال الشيخ العربي التبسّي –وقد كان (رحمه الله) أحد الأعضاء البارزين في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين- في رثائه للشيخ عبد الحميد بن باديس: "لقد كان عبد الحميد بن باديس في جهاده، وأعماله هو الجزائر كلها، فلتجتهد الجزائر بعد وفاته أن تكون هي الشيخ عبد الحميد بن باديس"[69]. ومنذ وفاته والشعب الجزائري في كل عام يحتفل بذكرى وفاته كيوم للعلم، مستحضراً تجربته الإصلاحية، ومستخلصاً الدروس والعبر لتوظيفها في عملية التغيير والإصلاح.

**ابن باديس: جهوده التربوية**

**1. نشاطه التعليمي التربوي**

لّما رحل ابن باديس إلى الحجاز قاصداً أداء فريضة الحج، التقى بمجموعة من علماء المشرق والمغرب، وشاءت الأقدار أن يكون البشير الإبراهيمي واحداً من هؤلاء الأعلام. يصف الأستاذ مهداوي هذا اللقاء التاريخي بين قطبيّ النهضة الجزائرية الحديثة

---

[67] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج3، ص 94-95.

[68] انظر: رابح، **الشيخ عبد الحميد ابن باديس باعث النّهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة**، ص 41.

[69] المرجع السابق، ص 61-62

فيقول: "وكان لهذا اللقاء أثره الخطير في نهضة الجزائر وزعزعة أركان الجهل، ودعائم الاستعمار، اجتمعا على هدف واحد هو خدمة الوطن والشعب، ووحدة الآمال، فكانا يسهران كل ليلة بمنزل الإبراهيمي يتدارسان أوضاع المجتمع الجزائري، وما أصابه من بلاء الاستعمار والجهل والانحراف الديني، ويبحثان في الوقت ذاته عن الوسائل التي يمكن أن تستخدم للنهوض بالبلاد والعباد، فكان لتلك الليالي شرف ميلاد (فكرة إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) التي لم تتحقق على أرض الواقع إلاّ سنة 1931م"[70]. وعن تلك الليالي التي يعبّر عنها بأنها إرهاصات للنهضة العلمية الجزائرية المعاصرة يقول الإبراهيمي: "كانت الطريقة التي اتفقنا عليها أنا وابن باديس في اجتماعنا بالمدينة في تربية النشء هي: ألا نتوسّع له في العلم، وإنما نربّيه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمّت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعددناه من تلامذتنا"[71].

إذاً فطريقة ابن باديس في التعليم ترتكز أساساً على الكيف لا على الكمّ، فليس هدفه من التعليم هو كثرة الحديث والمذاكرة بقدر ما هو تجديدٌ للإسلام الصحيح الذي جاء به رسول الله ﷺ، ودعا إليه أصحابه من بعده، والتابعون لهم بإحسان.

قال محمد البشير الإبراهيمي في معرض حديثه عن ابن باديس: "وكان -رحمه الله- يؤثر التربية على التعليم، ويحرص على غرس الفضائل في نفوس تلامذته قبل غرس القواعد الجافّة في أدمغتهم، ويدرّبهم على أن ينهجوا نهجه في العمل للعروبة والإسلام"[72].

---

[70] مهداوي، محمد، **البشير الإبراهيمي نضاله وأدبه**، (دمشق، دار الفكر، ط1، 1988م)، ص 37.

[71] الإبراهيمي، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، ج5، ص 280.

[72] المرجع السابق، ج5، ص 138-139.

من أعظم وسائل التعليم التي أعطاها ابن باديس قدراً كبيراً من الأهمّيّة هو القرآن الكريم الذي ظل يفسّره للناس مدة ربع قرنٍ من الزمان دون كلل أو ملل.

ثَمَّةَ جانب مهمّ جدّاً في الأسلوب التعليمي عند ابن باديس لا يقلّ أهمّيّة عمّا ذكر، وهو تعليم اللغة العربية، لأنّ الاحتلال الفرنسي كان يريد فَرْنَسة الشعب الجزائري أو إحلال اللّغة الفرنسية محلّ اللّغة العربية باعتبارها لغة القرآن، وأنّ القضاء عليها هو السبيل الوحيد لقطع الصلة بين الشعب الجزائري المسلم وبين القرآن الكريم. في هذا الشأن ينقل لنا محمد عمارة عن إحدى التقارير الفرنسية الخطيرة التي وضعت سنة (1848م) قولها: "إن الجزائر لن تصبح فرنسية إلا عندما تصبح لغتنا الفرنسية لغة قومية فيها، والعمل الجبار الذي يتحتم علينا إنجازه هو السعي وراء جعل الفرنسية اللغة الدارجة بين الأهالي إلى أن تقوم مقام العربية، وهذا هو السبيل لاستمالتهم إلينا، وتمثيلهم بنا، وإدماجهم فينا، وجعلهم فرنسيين"[73].

وبذكاء متّقد حارب ابن باديس أعداءه بالسّلاح نفسه، ألا وهو تعليم العربية، وكان يعتبره الوسيلة الوحيدة لإحباط نوايا الاحتلال. وفي هذا الشأن يقول الأستاذ محمود عبد الحليم بعد أن أوضح بأنّ ابن باديس اتخذ تعليم اللّسان العربي وسيلة رئيسة لمجابهة مخططات الاستعمار الغاشم: "ولهذا فإنّ حسن البنّا كان يؤيّد هذه الخطّة في الجزائر وكثيراً ما بعث بالرسائل والبرقيات لشدّ أزر السيّد عبد الحميد كما كان يكتب المقالات الضافية في مجلة الإخوان لهذا الغرض ويعلن الاحتجاجات على السلطات الفرنسية لمصادرتها لمدارس السيّد عبد الحميد واضطهاد رجاله العاملين معه، وفي ذلك الوقت لم يكن أحد من المصريين شعباً وحكّاماً يحسّ بما يجري في الجزائر

[73] عمارة، محمد، **تيارات الفكر الإسلامي**، (بيروت، دار الوحدة، 1985م)، ص 324.

ولا يعير ذلك أدنى اهتمام"[74]. وهذا الدّعم السياسي الصّادر من الأستاذ حسن البنّا هو نصرة لخطّة الأستاذ ابن باديس.

ونظراً لأهمّية اللّغة العربية، فابن باديس يعتبرها الحلقة الواصلة بين الأبعاد الثلاثة لتاريخ الجزائر حيث يقول: "ولا رابطة تربط ماضينا المجيد بحاضرنا الأغرّ والمستقبل السعيد، إلاّ هذا الحبل المتين: اللّغة العربية، لغة الدّين، لغة الجنس، لغة القومية، لغة الوطنية المغروسة. إنّها الوحدة الرابطة بيننا وبين ماضينا وهي وحدها المقياس الذي نقيس به أرواحنا بأرواح أسلافنا، وبها يقيس من يأتي بعدنا من أبنائنا وأحفادنا الغرّ الميامين، أرواحهم بأرواحنا، وهي وحدها اللسان الذي نعتزّ به وهي الترجمان عما في القلب من عقائد، وما في العقل من أفكار، وما في النفس من آلام وآمال. إن هذا اللسان العربي العزيز الذي خدم الدين، وخدم العلم، وخدم الإنسان، هو الذي نتحدث عن محاسنه منذ زمان، ونعمل لإحيائه منذ سنين، فليحقق الله أمانينا"[75].

ومما نَظَم ابن باديس من الشّعر: "شعب الجزائر مسلم *** وإلى العروبة ينتسب"[76].

أمّا عن تعليم المرأة فيرى وجوب تعليمها لإنقاذها من الجهالة العمياء[77]، بل يذهب إلى أبعد من ذلك، عندما يجوّز للمرأة أن تعلِّم غيرها، وتتولى تدبير أملاكها وتجارتها، وما تستطيعه من عمل عام مع مراعاة الضوابط الشرعية في ذلك[78]. كما أنّه

---

[74] محمود، عبد الحليم، **الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ**، (الاسكندرية، دار الدعوة، د.ط، د.ت )، ج2، ص 399.

[75] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج3، ص 475.

[76] المرجع السابق، ج3، ص 571.

[77] انظر: المرجع نفسه، ج2، ص 199.

[78] انظر: المرجع نفسه، ج4، ص 123.

حمّل العلماء والأولياء مسؤولية جهل المرأة، وأوجب على العلماء أيضاً الذين هم ورثة الأنبياء أن يعلموا الأمّة رجالها ونساءها، وقرّر أنّ من فرّط في هذا الواجب فهو آثم لا محالة إثماً كبيراً[79]. ومما استدلّ به ابن باديس على وجوب تعليم المرأة قوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ [البقرة: 282]، والحديث الشريف الذي رواه أبو داود عن الشفاء بنت عبد الله قالت: دخل عليّ النبيّ ﷺ وأنا عند حفصة فقال لي: "ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتيها الكتابة"[80] واستدلّ أيضاً بدليل تاريخي، وهو ما استفاض في تاريخ الأمّة بوجود العالمات الكاتبات الكثيرات[81]. وأمّا الحديث الذي يجري على ألسنة الناس، وهو ما رواه البيهقي في الشعب: عن عائشة مرفوعاً: "لا تنزلوهنّ الغرف ولا تعلموهنّ الكتابة، وعلموهنّ الغزل وسورة النور"[82] فقد أبطله ابن باديس لأنّ في سنده رجل كذّاب، إضافة إلى معارضته لما صح في غيره من الأحاديث[83].

في الوقت الذي دعا فيه ابن باديس إلى وجوب تعليم المرأة، وإنقاذها من الجهالة العمياء، حذّر أيضاً من الذّهاب بها في تيار المدنية الغربية إلى ما يخرجها عن حدود دينها ووظيفة أنوثتها. لذلك لـــمّا أهدي إليه كتاب: **"امرأتنا"**[84] للشيخ الطاهر الحدّاد (ت 1935م) التونسي وطالعه وجد فيه الدعوة إلى إبطال أحكام

---

[79] انظر: المرجع نفسه، ج2، ص 200.

[80] أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني، **سنن أبي داود**، (بيروت: المكتبة العصرية، د.ت، د.ط)، كتاب الطب، باب ما جاء في الرقى، حديث رقم 3887، ج4، ص11.

[81] انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج2، ص 202-203.

[82] أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، **شعب الإيمان**، (الرياض: مكتبة الرشد للنشر والتوزيع، ط1، 2003م)، ذكر سورة الكهف، حديث رقم 2227، ج4، ص 90.

[83] انظر: المرجع السابق، ج4، ص 125.

[84] انظر: الحداد، الطاهر، **امرأتنا في الشريعة والمجتمع**، (تونس، دار التونسية، ط4، 1985م).

عديدة من أحكام القرآن الصريحة القطعية الإجماعية، وتعطيل آيات عديدة من آياته بدعوى أنها غير لائقة بالنّساء في هذا العصر كما ينقل لنا رحمه الله[85].

في هذا الصّدد يخاطب الشيخ الحدّاد مستفهماً: "أفيجهل هذا الأصل الشيخ الحدّاد أم رضي لنفسه بانطباقه عليه؟؟"[86] ثم يقول مشفقاً عليه: "نحن لا نخشى على المسلمين من دعوته شيئاً لأنّه من المعلوم الضروري عندهم أنّ جحود شيء من القرآن كفر به، وإنّما نخشى عليه هو أن يستمرّ على عقيدته فيكون من الهالكين"[87].

وهكذا لم يترك ابن باديس جانباً من جوانب التعليم وزواياه إلاّ وقدّم له الحلول والاقتراحات المناسبة، فحسبنا ما ذكرنا، لأنّ المقام لا يسمح لنا أن نفصّل أكثر من هذا خشية الإطناب.

### 2. وسائله التربوية

#### أ- الجرائد

أغلب ما وصلنا من كتابات ابن باديس هو ما كان ينشره في الصحف والمجلات على امتداد عقدين من الزمن، أي ما بين (1925م- 1939م)، وكان ابن باديس يولي الجرائد والمجلات اهتماماً كبيراً لأنّها تعتبر من وجهة نظره منبراً قويّاً للدّفاع عن الحقّ في الجزائر، والصّدع به، وحسن تبليغه. لقد استعان ابن باديس بكل الأدوات التي توفرت في عصره لتبليغ دعوته للشعب الجزائري، وهكذا دخل ابن باديس في عالم الصحافة ليستخدمه في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والمطالبة بالحقوق. وكانت أوّل جريدة أسسها ابن باديس هي:

**1- جريدة المنتقد:** وقد جاء في افتتاحية العدد الأول لهذه الجريدة مقال شديد اللهجة، وهو بعنوان: "مبادؤنا وغايتنا وشعارنا" استهلّه قائلاً: "بسم الله، ثم

---

[85] انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج3، ص 475.

[86] المرجع السابق، ج3، ص 475.

[87] المرجع نفسه، ج3، ص 475.

باسم الحقّ والوطن، ندخل عالم الصحافة العظيم شاعرين بعظمة المسؤولية التي نتحمّلها فيه، مستسهلين كل صعب في سبيل الغاية التي نحن إليها ساعون، والمبدأ الذي نحن عليه عاملون، وها نحن نعرض على العموم مبادئنا التي عقدنا العزم على السّير عليها، لا مقصّرين ولا متوانين، راجين أن ندرك شيئاً من الغاية التي نرمي إليها بعون الله ثم بجدّنا وثباتنا وإخلاصنا، وإعانة إخواننا الصادقين في خدمة الدّين والوطن"[88].

هكذا كانت لهجة ابن باديس في جريدة المنتقد التي صودرت من قبل السلطات الفرنسية عام (1925م) بعد صدور ثمانية عشر عدداً كما ذكر الأستاذ رابح تركي[89]. وأصبح ابن باديس بعد ذلك كلما ذكر "المنتقد" وصفه بالشهيد.

**1- جريدة الشهاب:** أصدرها الشيخ عبد الحميد بن باديس في سنة (1925م) وهو العام الذي صودرت فيه جريدة "المنتقد". وقد كانت الشهاب في بداية الأمر جريدة أسبوعية ثم تحوّلت ابتداء من شهر فبراير سنة (1929م) إلى مجلّة شهرية[90]. وقد علّل ابن باديس هذا التحوّل الذي حدث في (الشهاب) بسبب أزمة مالية كادت تقضي عليه وهو في سنته الرابعة[91]. ويرى الأستاذ الباحث تركي رابح أنّ الشهاب من حيث المحتوى والعقيدة والاتجاه الإصلاحي والسياسي كانت تعتبر ثالث مجلة في العالم العربي والإسلامي بعد (العروة الوثقى) للسيّد جمال الدين الأفغاني (ت 1897م) ومحمد عبده و(المنار) للسيّد رشيد رضا[92].

---

[88] المرجع نفسه، ج3، ص 277.

[89] انظر: تركي، رابح، **الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم**، (الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، د، ط، د، ت)، ص 187.

[90] انظر: المرجع السابق، ص 187-188.

[91] انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج4، ص 353.

[92] انظر: رابح، **الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم**، ص 188.

لقد استمرّ (الشهاب) في الصدور حتى شهر سبتمبر من عام (1939م) حيث أوقفها ابن باديس من تلقاء نفسه بعد نشوب الحرب العالمية الثانية حتى لا ترغمه فرنسا على كتابة ما يتنافى مع مبادئه التي أوقف حياته على النّضال من أجلها بسبب ظروف الحرب وحاجة فرنسا إلى وقوف الجزائريين إلى جانبها ضدّ دول المحور[93]. وبالمناسبة فإن ابن باديس كان ضدّ تأييد فرنسا في الحرب ضدّ دول المحور[94]. ويذكر الباحثان عمّار الطالبي وتركي رابح أنّه خلال هذه المدّة التي كانت تصدر فيها مجلّة "الشهاب"، كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس تقوم بنشاط صحفي يتمثل في جرائد أسبوعية، فتأسست صحيفة: (**السنّة النبويّة**) في (1933م)، ثم قامت سلطات الاحتلال بإغلاقها في السنة نفسها بعد ثلاثة أشهر من صدورها. فخلّفتها مباشرة بعد أسبوعين جريدة (**الشريعة المطهّرة**) و لم تلبث إلا شهراً ونصفه ثم صودرت. فخلفتها مرّة أخرى بعد مضيّ أسبوعين جريدة (**الصراط السّويّ**) فأصابها بعد أربعة أشهر من صدورها ما أصاب أخواتها من قبل.

وبعد مرور عامين إلاّ يسيراً من تعطيل جريدة (**الصراط**)، أسست جمعية العلماء جريدة أخرى تسمّى: (**البصائر**) وصدر أوّل أعدادها في يوم الجمعة (1 شوال 1354هـ- 27 ديسمبر 1935م) ثم انقطعت سلسلتها الأولى عند اقتراب الحرب العالمية الثانية، وظهرت سلسلة ثانية بتاريخ يوم الجمعة (7 رمضان 1366هـ- 25 جويلية 1947م) واستمرّت إلى أن توقفت أثناء الثورة الكبرى ثورة أول نوفمبر سنة

---

[93] انظر: رابح، **الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم**، ص 187-188.

[94] قال الأستاذ توفيق محمد شاهين: "عندما لاحت نذر الحرب العالمية الثانية، وطُلِبَ من جمعيته أن ترسل برقية تأييدا لفرنسا. قال ابن باديس: (لن أمضيها ولو قطعوا رأسي) وترفض أغلبية الأعضاء، ثم يعلن ابن باديس: (ولو كان أغلبيتكم تؤيد إرسال البرقية ما كنتم ترونني في مجلسكم هذا بعد اليوم) ثم قال: (تقطع يدي، ولا أوافق المجرم على إجرامه، والظالم على ظلمه)"، انظر: ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 13.

1954م[95]. ثمّ استأنفت جريدة (**البصائر**) عملها التهذيبي مرّة أخرى، وهي تستمرّ في تأدية مشروعها على قدر طاقتها إلى يومنا الحاضر.

ختاماً، يحدّثنا تركي رابح عن أسلوب ابن باديس الصحافي، فيقول: "أسلوب ابن باديس في الصحافة يختلف اختلافاً كبيراً عن أسلوبه في كتابة التفسير والحديث والموضوعات الأدبية، ويمتاز بأنّه أسلوب مباشر، وقصير الجمل، ومركّز، ومفحم للخصم وطافح بالسخرية اللاذعة خصوصاً عندما يكون الأمر متعلّقاً بمناقشة المتهجّمين على الشخصية القومية سواء كانوا جزائريين أو أجانب"[96]. وسيأتي الحديث عن أحد الجزائريين المتهجّمين على الشخصية القومية في المطلب الآتي الذي أسميناه: **نظرته إلى الممارسة السياسية.**

**ب- المؤسسات التربوية**

لقد كرّس ابن باديس حياته كلّها لخدمة الإسلام والعربية والقرآن، مستسهلاً في ذلك كلّ الصّعاب التي قد تحول بينه وبين تحقيق ما يرمي إليه، وذلك بالتوكّل على الله عزّ وجلّ، ثم بثقته على نفسه وجِدّه وإخلاصه، وعلى إخوانه العلماء الأفاضل الذين شاركوه في العمل من فجر النهضة إلى يوم وفاته، وعلى الأمّة الجزائرية الكريمة التي استجابت لندائه من أوّل يوم. وفعلاً، فإنّ سرَّ هذه التضحيات العظيمة التي قدّمها ابن باديس في سبيل الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن ما هي إلا وفاء للعهد الذي قطعه على نفسه وعلى أنصاره يوم قال لهم: "إنّني أعاهدكم على أنّني أقضي بياضي على العربية والإسلام كما قضيت سوادي عليهما، وأنّها لواجبات، وإني سأقصر حياتي على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن، هذا عهدي لكم. وأطلب

---

[95] انظر: رابح، **الشيخ عبد الحميد ابن باديس باعث النّهضة الإسلامية العربية في الجزائر الحديثة**، ص 117-118. وانظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج1، ص 87-88.

[96] رابح، **الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم**، ص 189.

منكم شيئاً واحداً وهو أن تموتوا على الإسلام والقرآن ولغة الإسلام والقرآن"[97].
ومن هذا المنطلق فقد "علّم الأستاذ الإمام في المسجد الكبير، وفي سيدي عبد المؤمن، وسيدي بو معزة، ومدرسة جمعية التربية والتعليم، والجامع الأخضر، وسيدي فتح الله، وهذه المؤسسات كلّها ما زالت إلى اليوم"[98].

وقد ركّز ابن باديس على ثلاث مؤسّسات تربوية كان لها الفضل الأكبر في حركة الإصلاح الجزائري المعاصر وهي: مؤسسة المسجد، ومؤسسة مدرسة التربية والتعليم الإسلامية، ومؤسسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. وهذا دون أن نقلّل من أهميّة المؤسسات الأخرى التي أسهم فيها أو أشرف عليها ابن باديس مثل: "مؤسسة جمعية التجار المسلمين، ومؤسسة جمعية رعاية الأيتام، ومؤسسة جمعيات الكشافة الإسلامية، ومؤسسة المطبعة العربية.. "[99].

**1- مؤسسة المسجد:** استطاع ابن باديس بتوفيق من الله عز وجل، ثم بجهوده في التربية والتعليم وكذا جهود إخوانه، أن يعيد للمسجد دوره الرِّيادي في تسيير المجتمع الإسلامي والحفاظ على مقوّمات الشخصية الإسلامية. لذلك لم يكن المسجد في زمن المسلمين الأُوَل قاصراً على أداء الصلوات فحسب، ولكن كانت تعقد فيه حلقات العلم، وحلقات حفظ القرآن، وجلسات القضاء بين الناس، والتدريبات العسكرية، ومجالس الترويح على النّفس وغيرها من النشاطات التربوية والتعليمية والعسكرية مع مراعاة الضوابط الشرعية في ذلك كلّه. يقول ابن باديس: "المسجد والتعليم صنوان في الإسلام من يوم ظهر الإسلام فما بنى النبيّ ﷺ يوم استقرّ في دار الإسلام، بيته حتى بنى المسجد، ولما بنى المسجد كان يقيم الصلاة فيه ويجلس لتعليم أصحابه، فارتباط المسجد بالتعليم كارتباطه بالصلاة، فكما لا مسجد بدون صلاة،

---

[97] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج2، ص 144.
[98] المرجع السابق، ج1، ص 114.
[99] ابن باديس، **في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير**، ص 10.

فلا مسجد بدون تعليم، وحاجة الإسلام إليه كحاجته إلى الصلاة، فلا إسلام بدون تعليم"[100].

أمّا عن نوعية التعليم في المسجد، فيرى ابن باديس أنّ كل العلوم التي تخدم الإنسان من جميع النواحي فهي من علوم الإسلام ومن علوم المساجد[101]. ومن هنا إنّ التقسيم الذي اعتاده بعض النّاس في وقتنا الحاضر، وهو تقسيم العلم إلى قسمين: علم شرعي وعلم دنيوي، هو تقسيم لا أساس له من الصحة، لأنّ كل العلوم التي تخدم الإنسان من جميع النواحي فهي مما شرّعه الشارع الحكيم وحثّ الأمّة أفراداً وجماعات على ضرورة تعلّمه وتعليمه لتحقيق الأمن والسلام.

يذكر لنا تركي رابح أنّ ابن باديس قد رابط في "الجامع الأخضر" بقسنطينة أكثر من ربع قرن يعلّم ويربّي الشبيبة بالنّهار، ويعظ ويرشد الكبار باللّيل، حتى ختم فيه تفسير القرآن الكريم كلّه سنة (1938م)، كما ختم فيه أيضاً شرح كتاب "الموطّأ" للإمام مالك سنة (1939م)[102]. ويعدّ ابن باديس أوّل من بدأ حركة تعليم شاملة للكبار والصغار، إذ أنّ التعليم في ذلك العهد كان قاصراً على الكبار فقط. يقول ابن باديس في هذا الشّأن: "كان التعليم المسجدي في قسنطينة قاصراً على الكبار و لم يكن للصِّغار إلا الكتاتيب القرآنية، فلمّا يسّر الله لي الانتصاب للتعليم عام (1913م) جعلت من جملة دروسي تعليم صغار كتاتيب القرآنية بعد خروجهم منها في آخر الصبيحة وآخر العشيّة فكان ذلك أوّل عهد الناس بتعليم الصّغار"[103].

أيضاً كان يرى ابن باديس في إصلاح التعليم أساس كل الإصلاح، لذلك عانى كثيراً من "علماء الطبقة الأولى" -كما يصفهم محمد عبده- عند مناداته

---

[100] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج3، ص 225.

[101] انظر: المرجع السابق، ج3، ص 226.

[102] انظر: رابح، **الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم**، ص 356-357.

[103] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج3، ص 268.

للإصلاح الديني علماً وعملاً، فرموه تارةً بأنه وهَّابيّ[104]، وأحياناً بأنه عَبْدَاوِيّ[105]، وأحياناً أخرى بأنه سياسيّ. ومما سجّله له التاريخ هو تقديم ورقة إلى جامع الزيتونة تتضمّن مناهج إصلاح التعليم فيه. ومن هنا فإن ابن باديس كانت له عناية كبيرة بالولدان، فكان يخلط لهم مع القرآن تعليم اللغة وأدبها والتفسير وغير ذلك من العلوم التي تناسب سنّهم. وقد ذكر لنا ابن باديس في مجلّة الشهاب أنّه ابتدأ التعليم أوّلاً بالجامع الكبير، وكان يدرّس به كتاب (الشّفاء) للقاضي عياض، ولكن الحكومة الفرنسية منعته من التدريس بالجامع الكبير بسعي من المفتي الشيخ المولود بن الموهوب على حدّ تعبيره[106]، ثم طلب ابن باديس الإذن من الحكومة باستئناف التدريس في (الجامع الأخضر) فأذنت له، وقال أنّ الفضل في سماح الحكومة الفرنسية له بالتعليم بعد ما كانت منعته يعود إلى والده (محمد المصطفى) الذي توسّط له في الأمر، قال: "أمّا بداية تعليمي فيه فقد كانت أوائل جمادى الأولى عام (1913م) وكان ذلك بسعي من سيدي أبي لدى الحكومة فأذنت لي بالتعليم فيه بعد ما كانت منعتني من التعليم بالجامع الكبير بسعي المفتي في ذلك العهد الشيخ المولود بن الموهوب"[107]. وقد شهد تدريس ابن باديس في "الجامع الأخضر" تقدّماً ملحوظاً لم يُعهد من قبل، حيث أنه في سنة (1933م) تمّ تأسيس كلية علمية للعلوم الإسلامية بالجامع الأخضر يقوم بها جماعة من علماء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين[108]، واشتملت الدروس في هذه الكلية الإسلامية على تفسير الكتاب الحكيم، وتجويده، وعلى الحديث الشريف،

---

[104] نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب.

[105] نسبة إلى محمد عبده.

[106] انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج3، ص 190.

[107] المرجع السابق، ج4، ص 37.

[108] أمثال: العلماء الشيوخ: عبد الحميد بن باديس، عبد الحميد بن الحيرش، حمزة بكوشة، وهؤلاء كلهم تخرّجوا من جامع الزيتونة المعمور، ومن كبار التلامذة الشيوخ: البشير بن أحمد، عمر دردور، بلقاسم الزغداني. انظر: الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج3، ص 229.

وعلى الفقه في المختصر، وغيره، وعلى العقائد الدينية، وعلى الآداب، والأخلاق الإسلامية، وعلى العربية بفنونها من نحو وصرف وبيان ولغة وأدب وعلى الفنون العقلية كالمنطق والحساب والجغرافية والتاريخ وغيرهما أو كما قال ابن باديس[109].

وكثيراً ما كان يدعو ابن باديس الشعب الجزائري المسلم من خلال دروسه إلى تقديم المساعدات المادية والمعنوية لهؤلاء الطلبة الذين سيحفظون للأمّة الجزائرية أمر دينها فتبقى مسلمة ثابتة أمام الأعاصير، وشامخة مرفوعة الرأس أمام من يريد أن يذلّها. ومن نداءاته للأمّة الجزائرية قوله: "أيها الشعب المسلم الجزائري الكريم، تالله لن تكون مسلماً إلاّ إذا حافظت على الإسلام، ولن تحافظ عليه إلاّ إذا فقهته، ولن تفقهه إلا إذا كان فيك من يفقهك فيه. ولهذا فرض الله على شعب إسلامي أن تنفر منه طائفة لتتفقه في الدين وترجع إلى قومها بالإنذار، فبذلك يرجى لهم الرجوع إلى الله، وما هو إلا الرجوع من الضلال إلى الهدى ومن الباطل إلى الحقّ ومن الاعوجاج إلى الاستقامة ومن الشقاوة إلى السعادة ومن النّقص إلى الكمال"[110]. وقوله أيضاً: "ندعوكم لتمدّوا صندوق هؤلاء الطلبة، بما استطعتم من خير"[111]. وبالفعل، فقد استجاب الشعب المسلم الجزائري الكريم لنداء شيخها المخلص عبد الحميد بن باديس. وعلى إثر هذه الاستجابة الكريمة تخرّج من الكليّة مئات الطلبة يحملون العلوم التي تخدم الإنسان من جميع النواحي.

كان من عادة ابن باديس الطيّبة أنّه في ختام دروس التعليم يجمع الطلبة من جميع الطبقات الدراسية ليلقي عليهم كلمة الوداع ويزوّدهم بالوصايا النافعة مذكّراً إياهم بما بينه وبينهم من رابطة الأبوة والبنوّة وما بينهم من رابطة الأخوة وما تقتضيه هذه الروابط من محبة مثمرة للأعمال الصالحة في الخدمة العامة، وكان يختم الاجتماع

---

[109] انظر: المرجع السابق، ج3، ص 195-229.

[110] المرجع نفسه، ج3، ص 230.

[111] المرجع نفسه، ج3، ص 232.

بالدعاء والابتهال، ثم يودّعهم الأستاذ واحداً واحداً فيرجعون إلى بلدانهم مزودين بالخير دعاة إليه[112]. ويبقى الإمام الأستاذ معهم في اتصال ليتفقّد أحوال التربية والتعليم في المناطق التي يقطنون فيها.

**2- مؤسسة مدرسة التربية والتعليم الإسلامية:** هي مدرسة إسلامية تقوم على تربية أبناء المسلمين وبناتهم تربية إسلامية صحيحة بالمحافظة على دينهم ولغتهم وشخصيّتهم من الوجهة التربوية، وعلى تثقيف عقولهم بالعلوم العربية والفرنسية، وتعليمهم الصنائع من الوجهة التعليمية، ومن الوجهة المالية على تعويد الأمّة على العطاء المنظّم وتوسيع نطاق الجمعية بجعل الاشتراك الشهري فيها فرنكين، **أي: (Two French Franc)**[113].

تأسست هذه المدرسة سنة (1931م) بالمصادقة عليها من قبل الحكومة الفرنسية، وعدد أعضائها عشرة برئاسة الشيخ عبد الحميد بن باديس[114]، وأهداف الجمعية كما جاء في المادّة الثانية من قانون الجمعية الأساسي هو: "نشر الأخلاق الفاضلة، والمعارف العربية الفرنساوية والصنائع اليدوية بين أبناء وبنات المسلمين"[115].

وجاء في المادّة الثالثة: أنّ الجمعية تسعى لتحقيق مقصدها هذا عن طريق اتخاذها للخطوات الآتية: "- تأسيس مكتب للتعليم، - تأسيس ملجأ للأيتام، - تأسيس ناد للمحاضرات، - تأسيس محلّ للصنائع، - إرسال التلامذة على نفقتها إلى الكليات والمعامل الكبرى"[116].

---

[112] انظر: المرجع نفسه، ج3، ص 223.

[113] انظر: المرجع نفسه، ج3، ص 269؛ فرنكين مثنّى فَرَنْك، وهي عملة فرنسية قديمة.

[114] انظر: المرجع نفسه، ج3، ص 184.

[115] المرجع نفسه، ج3، ص 184.

[116] المرجع نفسه، ج3، ص 185.

إن الجديد في هذه المدرسة هو أنّ التعليم فيها يشمل البنات والبنين بعدما كان قاصراً على البنين فقط في عهود مضت. قال ابن باديس: "والتعليم فيه اليوم للبنين وقد عزمت الجمعية على فتح دروس بعد رمضان –إن شاء الله تعالى– لتعليم البنات، فندعو إخواننا المسلمين إلى المبادرة بأبنائهم وبناتهم إلى المكتب، فأمّا البنون فلا يدفع منهم واجب التعليم إلا القادرون وأمّا البنات فيتعلّمن كلّهنّ مجاناً لتتكوّن منهنّ – بإذن الله– المرأة المسلمة المتعلمة"[117]. ويلاحظ في هذه الفقرة أنّ ابن باديس جعل تعليم المرأة في هذه المدرسة تعليماً مجانيّاً سواء كانت قادرة على دفع مصاريف التعلّم أم عاجزة، وهذا تشجيعاً لها لتحصيل العلم المناسب لفطرتها كي تُوَظِّفه في تربية أولادها تربية إسلامية صحيحة باعتبار أنّهم سيكونون رجال ونساء الأمّة وقادتها المعوّل عليهم في المستقبل. ولا يفوتنا هنا أن نعلنها صراحة بأنّ دعوة ابن باديس بضرورة تعليم المرأة في تلك الفترة الحرجة دليل على سعة أفقه.

**3– مؤسسة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين:** ظل ابن باديس يفكّر دوماً في إنشاء جمعية إسلامية توحّد جهود علماء الجزائر وطلابهم والمثقفين منهم وتربطهم جميعاً ببرنامج مشترك من أجل مناهضة مكائد الاحتلال الفرنسي، والارتقاء بالشعب الجزائري المسلم بناء على خدمة العروبة والإسلام والعلم والفضيلة. وفعلاً، فإنّ الله حقّق هذه الرغبة بعد مرور ثمانية عشر عاماً من لِقاءٍ جمع بين الشيخ ابن باديس وصاحبه في الدَّرب الشيخ البشير الإبراهيمي في المدينة المنوّرة. وعن ذلك اللّقاء المهيب يقول الإبراهيمي: "وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة (1913م)، هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلا في سنة (1931م)"[118].

---

[117] المرجع نفسه، ج3، ص 186.

[118] الإبراهيمي، **آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**، ج5، ص 278.

أمّا عن ميلاد هذه المؤسسة فهي بطبيعة الحال لم تأت من فراغ وإنّما أفرزتها عوامل كثيرة أسهمت في ظهورها. عن هذه العوامل، يقول الشيخ الإبراهيمي –وهي ملخّصة كالآتي–:

**أوّلاً**: تأثير الشيخ عبده الذي يعدّ أوّل من نادى بالإصلاح الديني والعقلي في العالم الإسلامي.

**ثانياً**: تأثير مجلّة المنار واطلاع بعض الناس على كتب المصلحين القيّمة، مثل كتب ابن تيمية وابن القيم والشوكاني.

**ثالثاً**: الثورة التعليمية التي أحدثها ابن باديس بدروسه القيّمة والتربية الصحيحة.

**رابعاً**: التطوّر الفكري الفجائي الذي خرج به الجمهور من ثمرات الحرب العظمى، ومن آثار ذلك التطور انحطاط قيمة المقدسات الوهمية في نظر كثير من الناس.

**خامساً**: عودة فئة من أبناء الجزائر البررة المخلصين من الحجاز بعد أن تلقّوا العلم هناك بفكرة إصلاحية ناضجة مختمرة[119].

أما عن تأسيس الجمعية، فيقول تركي رابح: "تأسست هذه الجمعية في سنة (1931م) بعاصمة الجزائر، وتولّى رئاستها منذ البداية الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي انتخبه زملاؤه رئيساً للجمعية بالإجماع في غيبته، وتولى نيابة الرئاسة الشيخ البشير الإبراهيمي، الذي استمرّ يشغل هذا المنصب إلى أن توفي الشيخ ابن باديس في سنة (1940م) أثناء الحرب العالمية الثانية، فانتخبه أعضاء الجمعية في غيبته بالإجماع، لرئاستها وهو في منفاه في آفلو بالجنوب الجزائري"[120].

---

[119] انظر: المرجع السابق، ج1، ص 181-182.

[120] رابح، **الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم**، ص 67.

وبالفعل، استطاعت الجمعية تحقيق أهدافها عن طريق نشاطاتها ومشاريعها المكثفة، مثل تأسيس النوادي، والمدارس الابتدائية، والكليات الإسلامية، والجمعيات، والمساجد، وإرسال البعثات الطلابية إلى الخارج، والقيام بأعمال الوعظ والإرشاد في كامل التراب الوطني، وغير ذلك من الإنجازات التي حققتها.

من جهة أخرى يَعتبِر تُركِي رابح جمعية العلماء حركةً إصلاحيةً سلفيةً نظراً لأنها كانت تعمل على قمع البدع المنافية للدين، وإحياء السنّة النبوية من ناحية، كما يعتبرها أيضاً حركةً قوميّةً وطنيّةً لأنها كانت تقاوم سياسة إدماج الجزائر في فرنسا أو التجنّس بجنسيتها، وتناضل من أجل تربية الشعب وتنظيمه في منظمات كي ينهض لمقاومة الاستعمار[121]. وفي مقارنة طفيفة بينها وبين رواد المنار، يقول جيب (**Gibb**): "ففي الجزائر تشكلت (جمعية العلماء الجزائريين) لنشر مبادئ أصحاب المنار، وكانت هذه الجمعية تعارض بشكل خاص (المرابطين)[122] والطرق الصوفية.

---

[121] انظر: المرجع السابق، ص 153-154.

[122] الرّباط والمرابطة هو الإقامة على جهاد العدوّ بالحرب على تعبير ابن منظور. انظر: ابن منظور، أبو الفضل، **لسان العرب**، ت: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد الصاوي العبيدي، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ط3، د.ت)، ج5، ص112. ومن هنا يمكن القول بأن "المرابطين" هي جمع "مُرابِط"، فنقول هذا رجل مرابط، وهؤلاء الرّجال مرابطون أي يجاهدون ويحاربون العدوّ بالقتال في سبيل الله. وتسمّى حركة المرابطين بـــ: "المرابطية" وهي عبارة عن مؤسسة اجتماعية تسهم في خدمة الإسلام والمسلمين عن طريق التربية التعليم من جهة، وحماية ثغور الإسلام من أي خطر خارجيّ من جهة أخرى، ويمكن أن يعبّر عن هذه المؤسسة الاجتماعية بالزّوايا (وهي عبارة عن جامعة بتعبيرنا المعاصر) لاعتبارها المقر الرّئيس لنشر التربية والتعليم، إلى جانب التدريب العسكري. ويطلق اسم هذه الزوايا على مؤسّسيها مثل الزاوية السنوسية التي حاربت الغزو الغربي وأخرجت كبار المجاهدين مثل الشيخ بوعمامة في الجزائر والشيخ عمر المختار في ليبيا وغيرهما، والزاوية الرّحمانية التي حاربت الغزو الغربي أيضاً وتخرّج منها أيضاً كبار القادة مثل الشيخ الحدّاد وللا فاطمة نسومر في الجزائر وغيرهما. يرى الأستاذ عصمت أن المرابطين هم الذين وحّدوا المغرب لأوّل مرّة سياسياً ودينياً، وقضوا على التمزّق السياسي والمذهبي، وهم الذين أوقفوا التقدّم النصراني بانتصارهم في عدّة معارك حاسمة كالزلاّقة 1186م، وإقليش 1108م، وإفرَاغَةْ 1134م، وكان للمرابطين الفضل في المزج بين ثقافة الأندلس وثقافة المغرب والسودان، وأياديهم بيضاء وجهادهم في نشر الإسلام والثقافة العربية جنوب الصحراء لا ينكره إلا جاحد لا يقرّ الحقيقة. انظر: عصمت، عبد اللطيف، **أضواء**

وذهب الجزائريون إلى أبعد مما ذهبت إليه جماعة المنار لأنهم بدؤوا بالإضافة لدعواتهم المطبوعة الشفوية، إحياء المدارس القرآنية البدائية في جميع أنحاء البلاد للتأثير على الجيل الصاعد. وقد تكللت مساعيهم بالنجاح الكبير إذا أخذنا بعين الاعتبار الحواجز التي صادفوها في طريقهم، لكن مستقبل الجمعية أصبح مظلماً بعد وفاة عبد الحميد بن باديس عام (1940م)" [123].

هذا وقد كان ابن باديس يعتني بالشباب عناية كبيرة، لأنّهم إن صلحوا كان المستقبل زاهراً، وإن فسدوا كان المستقبل مظلماً، ومن هنا يلاحظ أن ابن باديس كان يُشرك الشباب في أعماله، ويدمجهم في جمعيّته، ويخصّص لهم دروساً نهارية وأخرى ليلية كي يأخذوا حظّهم من التربية والتعليم، ثم يدفعهم دفعاً إلى الأمام باعثاً فيهم روحاً جديدةً للجدّ والفِراهة. قال رحمه الله: "في إبريل (1933م) رأيت أن أبعث في الجمعية روحاً جديداً للجدّ والنّشاط بدعوة الشبّان المنخرطين في عضوية الجمعية لتأسيس فرع منهم ينهض بالجمعية نهضة فتيّة صادقة.. ورأيت أنّ لهم الحقّ أن

---

**جديدة على المرابطين**، (بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1991م)، ص 33- 34. وهكذا يفهم من هذا النصّ ومن نصوص أخرى أنّه لم يكن هدف ابن باديس الرّئيس هو محاربة الزّوايا بحدّ ذاتها وإنّما هو محاربة ما تحمله وتشيعه بعض الزوايا من أفكار خرافية وبدع ما أنزل الله بها من سلطان التي أدخلت إليها عن طريق رجال ليسوا من أهلها، وأيضاً لكون بعض الزوايا قد تمّ اختراقها من طرف الغزو الفرنسي فأصبح يقودها كيفما شاء وحيثما شاء. وأخيراً كان المفروض من الكاتب "جيب" أن يوضّح هذه الفكرة جيّداً حتى لا نظلم الناس أشياءهم والله أعلم.

[123] Gibb، *Les Tendances Modernes De L'Isla*, (Paris: 1949 Librairie Orientale Et Américaine), P 49

ويُعترضُ على صاحب هذا المقال بأنّ مصير الجمعية لم يكن مظلماً بعد وفاة ابن باديس رحمه الله، لأن حياة الجمعية لم تتوقف بوفاة ابن باديس، بل بلغت الجمعية برئاسة البشير الإبراهيمي إلى أعلى مراتبها –رغماً عن العراقيل– عندما أسهمت في تشييد المدارس، والمساجد، (..) وكذا إسهامها في حسم الكثير من القضايا المصيرية. ولو لم يكن لها إلاّ الدور الرئيس في تحقيق استقلال الجزائر الحديثة لكفاها. ولمن أراد معرفة ما حققته الجمعية من إنجازات بعد وفاة ابن باديس، فليقرأ: (**آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي**)، الذي جمعه ورتبه نجل الشيخ، وهو أحمد طالب الإبراهيمي.

يأخذوا حظّهم من التربية والتعليم على وجه يناسبهم فأسّستُ لهم درساً في يوم الأحد من كل أسبوع يلقى على جماعة منهم في الساعة العاشرة نهاراً وعلى جماعة أخرى في الساعة الثامنة ليلاً حتى يعمّ من يتفرغون له بالليل ومن يتفرغون له بالنّهار"[124].

لم يقف ابن باديس عند هذا الحدّ، و لم يعتبر مسألة التعليم الديني واللّساني هي مسألة شخصية وإنّما هي مسألة تخص جميع الجزائريين، لأجل ذلك فإنّه دعا إلى تعميم فكرة الجمعية بأن تؤسّس لها فروعاً أخرى في جميع البلاد حتى يشعر جميع العقلاء والأحرار من أبناء الوطن بمسؤولية التربية والتعليم. قال ابن باديس: "من ضمن القانون الأساسي للجمعية أنّ لها أن تؤسس فروعاً في البلدان، فهي مستعدة لكل بلدة ترغب أن تفتح فرعا لها، كما أنها تدعو جميع المسلمين في كل بلدة إلى مثل تأسيسها لتربية أبناء المسلمين وبناتهم وتعليمهن وتعليمهم وأن ينهضوا لذلك نهضة حقيقية ويسعوا له سعي الجدّ المتواصل فإنّهم لا بقاء لهم إلا بالإسلام ولا بقاء للإسلام إلا بالتربية والتعليم. والله مع الصادقين"[125]. ومن شدّة إخلاص ابن باديس فإنّه لم يحصر العمل التربوي التعليمي في جمعيّته وفروعها، وإنما راح إلى أبعد من ذلك عندما دعا كل جماعة يريدون تأسيس جمعية وفتح مدرسة لتعليم العربية والإسلام أن يكاتبوه ليرشدهم إلى ذلك، وهذا كلّه دفاعاً عن الإسلام والقرآن ولغتهما لا لدنيا يصيبها. قال رحمه الله: "كما ندعو كل جماعة يريدون تأسيس جمعية وفتح مدرسة لتعليم الإسلام والعربية أن يكاتبونا ويعرفونا لنرشدهم إلى الوجوه القانونية اللازمة"[126].

إنّ من أهمّ القضايا التي شغلت جمعية العلماء المسلمين هي قضية الإسلام والعروبة في الجزائر التي ظلّ الاستعمار يشكك في أصالتها، لذلك نلاحظ أن ابن

---

[124] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره**، ج3، ص 269.

[125] المرجع السابق، ج3، ص 270.

[126] المرجع نفسه، ج3، ص 246.

باديس –بصفته رئيس الجمعية ولسان حالها– كثيراً ما كان يربط في دروسه وكتاباته بين اللغة العربية والإسلام، وهذا الرّبط ليس عفوياً وإنّما هو مقصود، لأنّه لا بقاء للإسلام إلاّ بتعليم عقائده وأخلاقه وأحكامه، وأن لا تعليم للإسلام إلا بتعليم لغته، وبالتالي فلا يمكن الفصل بينهما مهما كانت الأعذار لأنّهما وحدة لا تقبل التجزئة، فتعطيل واحد منهما هو تعطيل للآخر.

يقول ابن باديس بمناسبة قانون 8 مارس الذي ينصّ على أنّ كل من يعلّم بلا رخصة يغرّم ويسجن: "ولما رأوا تصميم الأمّة على تعلّم قراءتها ودينها ولغة دينها، واستبسال كثير من المعلّمين في سبيل القيام بواجبهم نحو الدين والقرآن ولغة الدين والقرآن، واستمرارهم على التعليم رغم التهديد والوعيد ورغم الزجر والتغريم، لما رأوا هذا كله سعوا سعيهم وبذلوا جهدهم حتى استصدروا هذا القانون: قانون العقاب الرهيب"[127]. ثم يواصل قائلاً: "فهمت الأمّة من المعلّمون المقصودون، فهم معلّمو القرآن والإسلام، ولغة القرآن والإسلام"[128]. ويقصد ابن باديس بمعلّمي القرآن والإسلام رجالات جمعيّته الذين تفرّقوا في كل أنحاء البلد من أجل تعليم العربية والإسلام. وبالفعل فقد قامت الحكومة الفرنسية بإيذاء رجال الجمعية لأجل تثبيطهم عن مواصلة الإصلاح العقلي والفكري اللذين دعت إليهما الجمعية واعتبرتهما من أركان نهضتها. ومن هذه الإيذاءات على حدّ قول ابن باديس: اتهام الشيخ العقبي بتدبير عملية قتل لأحد معارضي أفكار الجمعية ومخلصي الحكومة الفرنسية، تغريم الشيخ الإبراهيمي على حفلة علمية، محاكمة الشيخ عمر دردور على علم نشره وفضيلة دعا إليها، حبس الشيخ عبد العزيز بن الهاشمي، والشيخ عبد القادر الياجوري (ت 1991م)، وغيره[129].

---

[127] **ابن باديس حياته وآثاره**، ج3، ص 243.

[128] المرجع السابق، ج3، ص 244.

[129] انظر: المرجع نفسه، ج3، ص 561-562.

يقول ابن باديس: "فهمت الأمّة كل هذا وفهمت أنّ هذا القانون سلاح جديد حديد أشهر لمحاربتها في أعز عزيز عليها، وأقدس مقدس لديها وهو قرآنها ودينها ولغة قرآنها ودينها .. فهمت الأمّة هذا الشرّ والكيد المدَبَّرَيْن لدينها وقرآنها ولغة قرآنها ودينها. وفهمته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الممثلة للأمّة في دينها وقرآنها ولغة دينها وقرآنها والنّاطقة في الدفاع عنها في هذه الناحية بلسانها والمعاهدة لله وللأمة على ذلك الدفاع إلى آخر رمق من حياتها"[130]. ويحسم ابن باديس هذا الصّراع القائم بين روّاده وبين خصوم العربية والإسلام بلهجة صريحة لا جَمْجَمَة فيها، قائلاً: "قد فهمنا -والله- ما يراد بنا وإننا نعلن لخصوم الإسلام والعربية أنّنا على المقاومة المشروعة عزمنا، وسنمضي -بعون الله- في تعليم ديننا ولغتنا رغم كل ما يصيبنا، ولن يصدنا عن ذلك شيء فنكون قد شاركنا في قتلهما بأيدنا. وإننا على يقين من أن العاقبة -وإن طال البلاء- لنا والنصر سيكون حليفنا- لأننا عرفنا إيماناً، وشاهدنا عياناً، أن الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما ولو اجتمع الخصوم كلهم على محاربتهما"[131].

يعترف المنصفون من الدعاة والمصلحين للدور الفاعل الذي قامت به هذه الجمعية في تهيئة الرأي العام العربي والإسلامي للوقوف إلى جانب الجزائر في محنتها. يقول المستشار عبد الله سليمان العَقيل: "إنّ جمعية العلماء المسلمين الجزائريين كان لها الفضل -بعد الله- في تخريج هذه القمم السامقة وهؤلاء الأئمة الأعلام والرّجال العظام، ولن ينسى المنصفون من الناس هذا الدور العظيم لهذه الجمعية المباركة، سواء في داخل الجزائر أو خارجها، فقد كان لمكتبها في القاهرة وفيه أمثال الإبراهيمي، والورتلاني (ت 1959م) دور فاعل مؤثّر في تهيئة الرأي العام العربي والإسلامي

[130] نفسه، ج3، ص 244.
[131] نفسه، ج3، ص 244-245.

للوقوف إلى جانب الجزائر في محنتها، كما كان لهذه الجمعية الأثر الكبير في جمع كلمة الدعاة والقادة المسلمين في العالم العربي والإسلامي لمواجهة التحدّي الاستعماري الذي يستهدف الإسلام كدين والمسلمين كأمّة، والأرض الإسلامية كوطن. ولقد استطاع الشيخ البشير الإبراهيمي بمؤازرة أخيه الفضيل الورتلاني أن يكسبا تأييد الشعوب العربية والإسلامية، بل بعض الحكام المسلمين بحيث صارت قضية الجزائر المحور الأساسي للخطب والمحاضرات والندوات والمؤتمرات"[132]. وهكذا ظلّت الجمعية تناضل من أجل تحقيق ما كانت ترمي إليه من أهداف سامية ومطالب عالية إلى أن توفّي رئيسها سنة (1940م)، وظلّت تعمل بعد وفاته برئاسة الشيخ الإبراهيمي حتى حُلّت من قبل السلطات الفرنسية سنة (1956م)، ثم استأنفت الجمعية أعمالها بعد الاستقلال، وهي ما زالت تنشط إلى الآن برئاسة الشيخ عبد الرحمن شيبان، ولكن ليست بالحجم نفسه والثقل والمهابة التي كانت عليها في عهدها الأوّل، وصدق من قال: يمضي الرّجال ويبقى النّهج والأثر. توفي ابن باديس الذي كان العصب المحرّك لهذه الجمعية تاركاً وراءه المنهج الذي استقاه من كتاب الله عز وجل، ومن سنة رسوله ﷺ التي تعتبر التفسير التطبيقي والعملي للقرآن الكريم، ومن هدي السلف الصالح رضوان الله عليهم أجمعين.

---

[132] الطالبي، **ابن باديس حياته وآثاره** ، ج3، ص 169.

## الخاتمة

عالج البحث موضوعاً مهمّاً وحيويّاً في إبراز جهود الإمام عبد الحميد بن باديس في الجانب الإصلاحي من خلال تفسيره في مجالس التذكير، وأبرز البحث جهود الإمام ابن باديس الإصلاحية فضلاً عن التّرجمة لحياته وبيان جهوده العلمية والكشف عن منهجه في التفسير الذي انطلق منه لإصلاح الواقع الاجتماعي والسياسي والتربوي للأمّة ووقوفه في مواجهة التغريب الفرانكفوني، والمحافظة على أصالة الأمّة المسلمة في الجزائر، وقد تطرّق البحث إلى الآتي:

- وصف الاحتلال الفرنسي وآثاره في الواقع الجزائري، وقيام العلماء والمصلحين في مواجهة هذا الاحتلال فكراً وجهاداً.
- التعريف بالإمام ابن باديس ونشأته وتعليمه، والتعريف بآثاره العلمية.
- التعريف بأعمال ابن باديس الاجتماعية ونشاطاته التربوية والتعليمية في المجتمع الجزائري في إيقاظ الأمّة وتوجيهها ضدّ الاحتلال، وبناء المجتمع بناءً يقوم على الأسس الإسلامية.

هذا ولا شكّ أنّ الشيخ الرّئيس عبد الحميد بن باديس لم يألُ جهداً في خدمة الإسلام والقرآن ولغتهما بكل الوسائل المتاحة في عصره إلى أن أسلم الرّوح إلى باريها.

قال سعيد الصالحي: "وإن أنس لا أنسى موظّفاً سامياً فرنسياً استدعى الشيخ عبد الحميد رئيس الجمعية فقال له: إما أن تقلع عن هذه الأفكار وإلا أغلقنا المسجد الذي تنفث فيه سمومكم ضدّنا. فأجابه: لن تستطيع ذلك، وبعد حوار قال له الشيخ: فأنا إن كنت في عرس علمت المحتفلين، وإن كنت في مأتم وعظت المعزين، أو في القطار علمت المسافرين، أو في السجن أرشدت المسجونين، فأنا معلم مرشد في جميع

الميادين، فالأمّة استجابت لداعي الله يحييها، وخير لكم أن لا تتعرّضوا لها في دينها ولغتها"[133].

وما أحسن وصف أبي العتاهية عندما قال:

من الناس ميْتٌ وَهْو حيٌّ بذكره *** وحيٌّ سليمٌ وَهْو في الناس ميِّتٌ
فأمّا الذي قد مات والذّكر ناشرٌ *** فميْتٌ له دينٌ به الفضلُ يُنعتُ
وأمَّا الذي يمشي وقد مات ذكره *** فأحمق أفنى ديـــنه وهو أمْوتُ[134].

إنّ هذا فيض من غيض، ونطفة من لجة، مما كان ينبغي أن نقدّمه عن الحياة العلمية والعملية لابن باديس، مهندس النهضة الإسلامية العلمية بالجزائر، وواضع اللَّبِنات الأولى لاندلاع الجهاد المبارك. وأهم من ذلك كله إنه كان سبباً في تثبيت هُوية الجزائر الإسلامية والعربية في وجه الاستعمار الفرنسي.

رحم الله الشيخ عبد الحميد بن باديس مدى الأيام ما قرئت صحيفة، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء إلى يوم الدّين. والحمد لله رب العالمين.

---

[133] السحمراني، أسعد، **مالك بن نبي مفكرا إصلاحيا**، (بيروت، دار النفائس، ط2، 1987م)، ص 60. نقلاً عن: الصالحي، سعيد، **كفاح الشعب الجزائري**، ( الكويت، مجلة المجتمع، العدد 143، 23 صفر 1393هـ، 27 مارس 1973م)، ص 17.

[134] انظر: أبو العتاهية، إسماعيل، **شرح ديوان أبي العتاهية**، (بيروت، دار صعب، د.ط، د.ت)، ص 40.